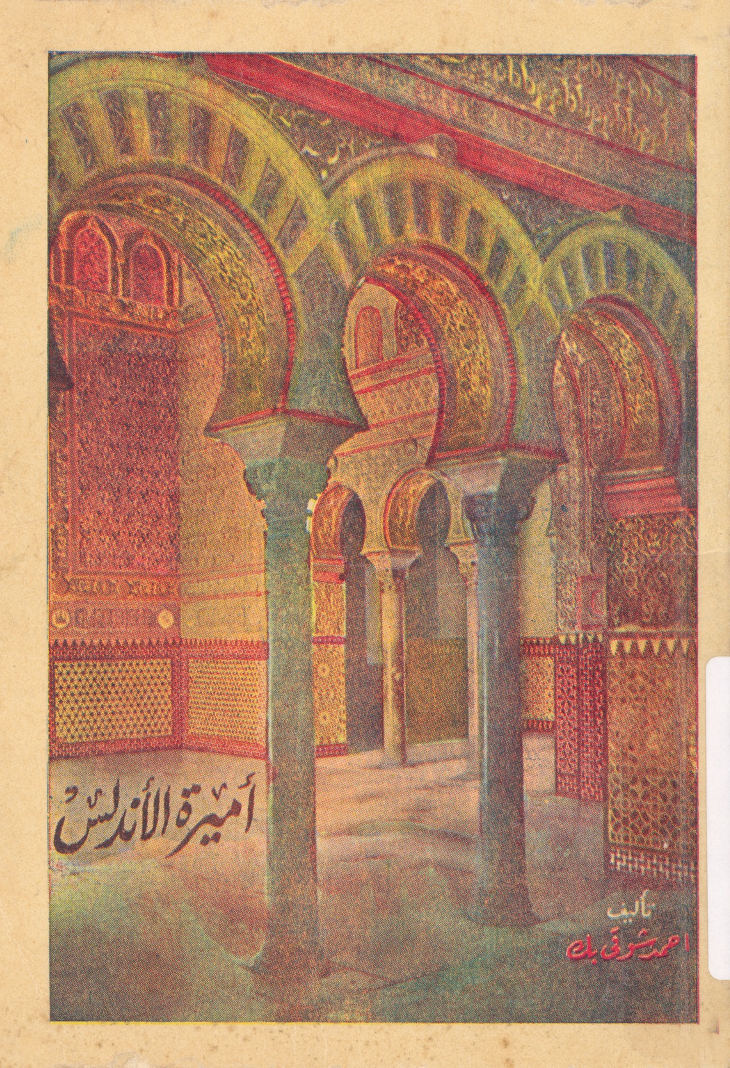

أميرة الأندلس
تأليف
احمد شوقي بك

أميرة الأندلس

تأليف

المرحوم أحمد شوقى

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص. ب ٥٧٨

تمهيـــد

(١) زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

(٢) مكان الرواية : أشبيلية ، أغمات .

(٣) أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد : ملك أشبيلية .

الرميكية : الملكة .

العبـــادية : أم المعتمد .

بثينـــة : بنته .

القاضي ابن أدهم : قاضي القضاة .

الأمير حريز : من أبطال الأندلس .

الأمير بولس : شقيق ملك الأسبان .

أبو الحسن : تاجر بأشبيلية .

حسون : ابنه .

ابن حيون : من الأدباء .

أبو القاسم : من الأدباء .

مقـــلاص : مضحك الملك .

لؤلؤ
جوهر } من حجاب الملك .

ابن شاليب : رسول ملك الأسبان .

الباذ ابن الأشهب : لص شهير .

أمراء .

جنـــد .

الخ . . .

رواية أميرة الأندلس

مقدمة

جرت حوادثُ هذه القصة فى زمن كان قطعة من ليل الملمات، اخذت الأندلس فى جنحها الحالك ثم تركته نظما منحلا وركناً مضمحلا ، وشمساً من دول الإسلام سقمت فألح عليها السقم فاحتضرت ، فكانت لها فى الغرب هدّة وكانت عليها فى الشرق ضجة ؛ وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلسُ تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوكُ على شرف بيوتهم وتميز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علم وأدب أصحابَ بذخ وترف ، وأخدانَ صبوةٍ وخلاعة ، لاحظَّ لهم من همة الملك ولا نصيب

من مراشد السلطان ، وإنك لتعجب من انغماسهم فى اللذات ونسيانهم لذكر العواقب ، وهم أتعبُ خلق الله وأكثرُ الملوك ركوباً للغرَر ، واستهدافاً للخطر ، ومشياً على الحبائل والحفر ، فأما فى داخل دويلاتهم فكيد وائتمار ، وفتنة نومها غِرار ، وسيفها فى الغمد قليل القرار ، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على ملك مخلوع ولا تغرب إلا على ملكٍ مقتول ؛ وأما فى الخارج فكنت ترى هؤلاء الملوك بين نارين تتواعدان ، وبين سيلين يتهددان : فلك الأسبان الفونس يتجنى ويعتدى ، ويضرب الجزية ويفرض الإتاوات ، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهل غِلظة وقحة ؛ وصاحبُ مُراكش يوسفُ بن تاشفين هو وقوّاده ووزراؤه مشغوفون بالأندلس يمطرونه الرسل والرسائل إلى قضاته وفقهائه ، مهيئين بذلك لفتح بنوا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال ، وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هذا المسلح المتوثبَ سلطانِ المغرب ويرجونه ، فكان تملقهم له لا ينقطع ، وكانت الأموال تحمل إليه فى صورة المعونة ، وكانت الرِّشى تقـــدم

لوزرائه ورؤساء دولته فى صورة الهـــدايا والألطاف ؛ وكل هذا المـال إنما كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيل كيف كان بؤس الرعية ، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبث الفرد وغفلة الجماعة . . . ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمل شطر هذا البلاء ، فلم تلبث أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشق والرصافة(١) فصارت كرسى إقليم وقاعدة دويلة وعرش ملك صغير يؤدى الجزية ولا يحس لهـــا ذلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الاول

« مقصورة من مقاصير البديع [قصر المعتمد بن عباد] فى أشبيلية »
« والى يمينها مصلى وفى مؤخرها ستار كبير يحتجب ، وقد وقف على »
« بابها جوهر حاجب ابن عباد ، ولؤلؤ ساقيه ، ومقلاص مضحكه »

جوهر [إلى لؤلؤ] : كيف وجدت وجه الملك اليوم يالؤلؤ ؟

لؤلؤ : كسنته ، يفيض من البشاشة والبشر .

جوهر : بل أنت واهم يا لؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام وبدا عليه التغضن وأثرت فيه الهموم أثرها الظاهر المبين .

مقلاص : كان الله عون الملك ، إنه ليحمل من هموم الملك وأكدار السياسة ماتنوء به الجبال ، لعن الله السياسة وقبح الولاية ، ولا جعل لى من أشغالها نصيباً .

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص] : وأىّ نصيب كنت تؤمل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألت الله أن يحرمك منه ؟

مقلاص (ملتفتاً) : دعنى من هذيانك ياجوهر وانظر : هذه الأميرَة أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليلة الظلماء ، أو كأنها الظبىُ يتخطر على الحصباء .

(تدخل الأميرة بثينـــة)

بثينـــة : يابشراى ماهذا الحظ العظيم ، أصدقائى الثلاثة ههنا، يجمعهم باب الملك : جوهر حاجب الملك ، ولؤلؤ ساقى الملك ، ومقلاص .

مقلاص (مقاطعا) : مقلاص المهرجُ السافطُ والمضحكُ الوضيع.

الأميرة بثينة : لا تقل هذا يا مقلاص ! ولكن قل نديم الملك وصديقُ بنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرجُ صديقك أنت يا أميرة أشبيلية ، بل ياملكة الأندلس ، بل يا شريكة الشمس فى عرش الوجود ؟ !

الأميرة : أعرفت الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفته يا سيدتى وإنى به لمزهوٌّ فخور .

الأميرة : إذاً فاعلم أيضاً أن هـــذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملك لرجالٍ يكره لقاءهم ويغمه رؤيتهم وسماعهم .

مقلاص : أما أنا يا سيدتى فمـــا وقفتُ على باب الملك مرة إلا حجبْتَ عنه الفكر والغمّ .

الأميرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هـذا الساقى يا مولاتى يقبض كل يوم من دماغ الملك شعاعاً ، ولولا أن دماغه الشريف كالشمس التى لا تنفـدُ أشعّتُها لكان اليوم جمجمة لا عقل فيها كأكثر هذه الرءوس التى نراها فى الطرقات .

الأميرة : وأما أنتَ يامقلاص فتسقى الملك كُلَّ ساعةٍ من رحيق مَزْحك ودُعابتك ما يملؤه غبطةً وعافية وسروراً .

جوهر (مقاطعا ـ متداخلا) : لقد استأثرتَ يا نـديم الملك ويا صديق الأميرة .

مقلاص (مغضبا) : بالرغم من أنفك !

جوهر : لقـد استأثرت يا مقلاصُ بحديث الأميرة فتنحَّ ساعةً واترك لنَا فضلة من الشهد .

جوهر (للأميرة) : مولاتى ، سيدتى ، بثينة ، أيةَ وحشة خلفتِ فى القصر يا مولاتى .

الأميرة : أو أبداً تبالغ ؟

جوهر : كلا يا مولاتى ! هى كلّهُ طافتْ بالقصر منذ افتقدناك هـذا الدهرَ الطويل .

الأميرة : أتعدُّ الثلاثة الأيام دهراً يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيراً ، لِمَ لَمْ تسألنى يا جوهر أين كنت ؟

جوهر : أعلم أنك كنت فى قرطبة يا مولاتى .

الأميرة (وتبتسم ابتسامة سخر) : أجل كنتُ فى ملكنا الجديد ياجوهر .

جوهر : وكيف وجدته ؟

الأميرة : العنوانُ قبة ، والكتاب حَبة .

جوهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرة بأشبيلية وطنها الغالى ومهدها العزيز قد أنساها ذِكر الفضل لقرطبة دارة الملك الأولى ومهد الفتح والعمران و . . .

الأميرة : أجل ، وسمـــاء الرعود والعواصف ، وَوكر الفتن والقلاقل . آهِ من قرطبة وفجاءاتها ياجوهر ، وويلى على أخى الظافر من هذه الولاية الحمراءِ التى لم يقلدها أميرٌ إلا قتل أو عزل . . عرش يضطرب تحت كلِّ جالس ، وتاجٌ لا يستقر على رأس كلِّ لابس .

مقلاص : مَوْلاتى !

الأميرة : مقلاص ، أشبيليةُ وأبى وأنت كانتْ ذكراكم ملءَ خاطرى فى قرطبة ، هل من دُعابةٍ جديدة يامقلاص تُنسينى ما لقيت من الغم والكدر على تلك العاصمة الثانية لملكنا السعيد ؟

مقلاص : لا تقولى هـذا يا مولاتى فيغضبَ القرطبيون ؛ إنهم لا يقدِّمون على مدينتهم حاضرة من حواضر الدنيا ولو كانت دمشق أو بغـــداد ، فكيف يرضون أن تكون الثانية لأشبيلية ومامدينتنا فى زعمهم إلا بلدُ الخلاعةِ والمجون .

الأميرة (ضاحكة) : وأين قرطبة منا الآن ، وأين القرطبيون يا مقلاص ، وبيننا وبينهم سَفَرٌ شاق طويل ! ترى من علمك كل هذا الحرص ، ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هى الأيامُ يا أميرتى ، هى الأيام ، وهذا السيفُ . . ماذا كنتِ تصنعين به يامولاتى !

الأميرة : كنتُ أتقى به عوادى الفجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

الأميرة : كنتُ أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلدٍ ضيق الصدر مبلبل العقل ، شتان بينه وبين أشبيليةَ ذات العقل الواسع والصدر الرحيب .

الأميرة (لجوهر) : لقد نسيتُ يا جوهر ذكر واجب كان عليّ أن أقدمه قبل كل شيء .

جوهر : وما ذاك يا سيدّتى !

الأميرة : السؤالُ عن الملك .

جوهر : هو يا مولاتى بخير أبداً يسأل عنك .

الأميرة : وأين هو الآن ؟

جوهر : هو فى الصلاة يا سيدتى .

الأميرة (تطرق فى تأثر ثم تقول) : يا ويحَ أبى ! لقد نظرت إليه وهو فى قصر السوسان الضيق الصغير بقرطبة فوجدته كئيباً متململا كأنّ تلك السقوفَ المنخفضة لم تكن تليق برأسه العالى ، وكأنّ تلك الحجرات الضيقة لم تصنع لعينه السامية الطامحة ، وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تقله ، وأجدرَ بأن تظله ، وهناك دنوتُ حتى صرتُ خلفه بحيث أسمعه ولا يرانى ، فسمعته يقول وكانَ وحده فى الحجرة

مطلا من نافذة يلقى نَظره على قرطبة .

جوهر (باهتمام) : وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميرة : كان يقول : قرطبة . . مُلك جديد أضيف إلى ملك أشبيلية ، ما أصغر المضاف والمضاف إليه . انظر ابن عباد إلى العرش كيف صغر ، وإلى الصولجان كيف قصرُ ، وإلى الملك كيف اختصر ، وتأمل مكان الحكم فى قرطبة كيف سد اليوم بالمعتمد ، ومجلس الناصر كيف شغل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضى ابن أدهم يا مولاتى .

مقلاص (متداخلا) : لعله هذه الكرنبة التى تتدحرج من بعيد منحدرة إلينا .

الأميرة (مستضحكة لجوهر) : استقبل أنت يا جوهر القاضى وأدخله على أبى، فإن قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه

الأميرة (ثم لمقلاص) : وأنت يا مقلاص ، أعرفت أنى وجدته .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الأميرة : أنسيت يامقلاص حين تقول لأبى بمسمع منى إن الزوجَ

الكف. لبثينة لم يُخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره

مقلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلتُ هذا ولا أزال أعيدهُ .

الأميرة : إذاً فاعلم أن الزوج الذى يصلح لى قد خُلق .

مقلاص : ومن ذاك ؟ ما اسمه وأين هو الآن ؟

الأميرة : كل هذا تعلمه بعد حين يا مقلاص ، تعالَ معى الآن ، اتبعنى ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأميرة : [إلى جوهر] : فى حفظ الله يا جوهر .

الأميرة : [إلى لؤلؤ] : فى حفظه يا لؤلؤ .

جوهر ولؤلؤ معاً : فى ذمة الله وكلاءته يا مولاتى .

الأميرة : لا تنسيا أن تذكرانى عند الملك وأنى رهنُ إشارته

(تخرج الأميرة مع مقلاص)

جوهر : أشكر الله أن أخر مجىء القاضى .

لؤلؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى وأخشى على مولاتى فى زيها هذا من عين الشيخ ولسانه .

(يظهر الملك)

الملك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جوهر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحة القصر .

لؤلؤ : وقد عادت الأميرةُ من قرطبة يا مولاى .

الملك : أو عادت الآن ؟

لؤلؤ : أجل يا مولاى .

الملك : أهى بخير ؟

لؤلؤ : بأتم عافية يا مولاى .

الملك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارته فأتِ بها إلىّ .

لؤلؤ : أمرُك يا مولاى .

(يخرج لؤلؤ)

الملك : وعليك يا جوهر أن تستقبل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفر بشاشة وتعظيم .

(يخرج جوهر ثم يرجع . يتقدم القاضى ابن أدهم وينادى من باب الحجرة)

جوهر (منادياً من الباب) : القاضي ابن أدهم .

القاضي : السلام على الملك ورحمة الله وبركاته .

الملك : وعليكم السلام أيها القاضي ومقدم الخير ، فقد علمتُ أنك كُنْتَ نزيل المغرب في الأيام الأخيرة وكنتَ به ضيفاً على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

القاضي : هو ذاك يا مولاى .

الملك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

القاضي : عندى من ذلك الشيءُ الكثير وسأذكره فى مجلس تال يأمر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حملتها الأمير سيرى بن أبى بكر .

الملك : وما هى أيها القاضي ؟

القاضي : أو يعرف الملكُ الأمير سيرى ؟

الملك : كيف لا أعرفه ! هو كافل الدولة المغربية ، وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشه الأكبر ، وما يبتغى منى الأميرُ أيها القاضي ؟

القاضى : إنه يخطب إليك الأميرة بثينة .

الملك : ألشخصه يخطبها أم لواحد من أولاده ، فهم فيما أعلم كثر وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلاده ميلاد بثينة !

القاضى : بل يخطبها لنفسه أيها الملك .

الملك : إن هذا عجيب أيها القاضى ، وما كان جوابك ؟

القاضى : قلت له إن الملك ابن عباد يذهب بينته بثينة كل مذهب ولا أظن قلبه يطاوعه على تزويجها فى الغربة وإخراجها إلى بلاد بعيدة .

الملك : أحسنت أيها القاضى ؛ فما هذا زواج ..إن هذا الاقبر أخطه بيدى لبثينة ، على أننى محضر إليك بثينة لتحدثها وتسمع منها .

الملك [إلى جوهر] : جوهر ، جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يختفى جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبى !

الملك : بنيتى !

الأميرة : أطلبتني يا أبي ؟

الملك : تعالْ بثينةُ حيي عمك القاضي ابنَ أدهم .

الأميرة : السلام عليك يا مولانا القاضي ورحمة الله وبركاته .

القاضي : وعليك السلام يا بنتَ أكرم الملوك . تعالىْ خذى مجلسكِ بينَ أبيكِ وعمكِ .

الملك : مع من عدت من قرطبة ؟

الأميرة : مع لشامى وجوادى .

الملك : وكيف وجدت قرطبة ؟

الأميرة : وجدتُ طرقاتها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزيهم . فذكرتُ عندئذ شُهرَةَ هذا البلد بالفتنةِ والتشغيب وجرأةَ أهله على أمرائهم وحكامهم وأشفقتُ منه على أخى الظافر ، ولئن كنتُ واثقة بحزمه وعزْمه .

القاضي : ومن أنباك أيتها الأميرة أن الفتنة والشغب يجيئات من ناحية الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبق سراً يا سيدى القاضى أن الفقهاء يُعلقون سعادة الأندلس وخلاصه بإلقائه فى أحضان جيرانه سلاطين المغرب .

القاضى : وأنت يابنتَ ملوكِ المسلمين ، أما تجدين ما يطلبه الفقهاءُ فى قرطبة أجدى على الأندلس من بقائه على الحال التى هو فيها مُشرفاً على التلف والضياع !

الأميرة : لا يا سيدى القاضى ، ليس فى الحق أن يَغتصبَ جماعة من المسلمين أوطانَ جماعة غيرهم من المسلمين ، فإن الوطنَ هو كالبيت فى قداسته وكالضيعة فى حرمتها .

الملك (متدخلا فى الحديث) : لقد بعثت يا بثينة فى طلبك لغير هذا الشأن ، وفى أمرٍ ذى بال ، وإنى أترك للقاضى التحدثَ معك فيه .

الأميرة (ملتفتة إلى القاضى) :

تكلّمْ يا عمُّ فكلى إصغاء !

القاضى : لقد خطبك إلى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هذا

الوقت هو الأمير سيرى بن أبي بكر وزير الدولة
المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى !

القاضى (فى حيرة) : بل له من الأزواج ثلاث وستكونين
الرابعة . وستكونين المدللة المهدَّة من بين أزواجه .

الأميرة (فى غضب) : إنك يا سيدى القاضى تدعونى إلى خطة
لا أنا مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولها
ولا الأمير ابن أبي بكر معطل البيت من الربة الصالحة
فيتشبث بها ويصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَ
عليها ولم آلف رؤية مثلها فى حياة أسرتى . فهذا أبى
جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرة ولم يكسر
قلبها بالشريكة فى قلبه فجاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع
فى جناح الأبوة ولا نفترق فى عاطفة الأمومة ،
ولو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوك والأمراء
نساء كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم
إخوة وهم أنصاف إخوة ، من كل دجاجة بيضة ومن
كل شاة حمل .

القاضى (متلطفاً) : شهد الله لقد أحسنت يا ابنتى ، ولكن مصلحة الملك أنسيتها ، ونصرة الوالد أغفلت عنها ، وسلامة الأندلس أأهملت شأنها ؟

الأميرة : لا ياسيدى القاضى كل ذلك فى المحل الأول من نفسى واهتمامى ، ولكننا مختلفان فى النظر ، فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوته إلا إذا مدّ السلطان إليه يده ، وأنا أتخيلها يَد الذئب يمدّها إلى الحمل ، وأنت يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلس ، وأنا كلى رجاء ولا أستبعد أن تتهيأ لأبى وهو كهف الأندلس وملاذه ، الفرصة لجمْع الكلمة وضرب الافرنج ضربة تريح العرب منهم السنين الطوال ، وأنتَ تعلم أن تاريخ الأندلس مفعم بالفجاءات السعيدة من هذا الطراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسر ، ولقد رددتُ عنك أيتها الأميرة وعن أبيك الملك وأحسب أنى أحسنتُ الرد .

الملك : كل الإحسان أيها القاضى .

القاضى : الآن لم يبق لى إلا أن أنصرف .

الملك : مشيعاً بحفظ الله ورعايته .

(ينصرف القاضي ويشيعه الملك)

الملك (للقاضى) : كيف تجد بثينة يا ابنَ أدهم ؟

القاضى : بورك لك فيها وبورك للأندلس فى عقيلته ! إنى أجِدُها روحَ الوالد ، وأرى عليها طبعة الزمن وحضارة الجيل .

(يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضي)

الملك : أعلمتَ يا مقلاص ! أسمعتَ أن سيرى بن أبى بكر يخطب إلىَّ بثينة ؟

مقلاص (ملتفتاً إلى بثينة بصوت خافت) : أهذا الذى وجدته يا سيدتى ؟ إنى لا أهنيك بتيس المغرب .

الأميرة : لا يا مقلاص ، إن الذى وجدتُه هو غزال الأندلس لا تيس المغرب .

الملك : خبريني يا بثينة ماذا وجدت فى قرطبة ؟

الأميرة : حال من القذارة تتنزه عن مثله أشبيلية .

الملك : هذا من توالى الفتنة والاضطراب على الناس حتى شُغلوا عن تنظيف مدينتهم التى كانت المثال المحتذى بين المدْن نظافة ونظاماً .. ثُم ماذا ؟

الأميرة : راعتنى قصورها المهجورة الموحشة كأنها الأطلال.

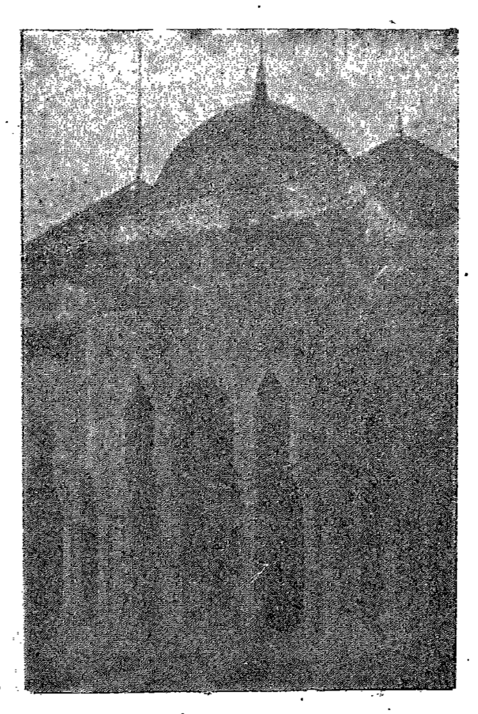
الملك : هذا من انقراض الوارثين أو ضيق نعمتهم عن سكنى الدور الواسعة وصغر أقدارهم عن نزول المنازل الرفيعة .

(يظهر على بثينة التأثر والاهتمام)

الملك : ماذا غمك يا بثينة ؟

الأميرة : تذكرتُ يا أبى قصورنا فجزعت ، وقلتُ : الزاهى ترى ما نصيبه ، والتاج ماذا غداً يصيبه ، والبديعُ ما يكون مصيره ، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

الملك : بنيتى؟ خلى عنك هذه الهواجس، ولا تحملى على الشباب



قصر من قصور الأندلس

العبوس والهم فإنه لم يخلق لهما ، اصرفى الشبابَ إلى الضحك والغبطة فإنهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة ؟ خبرينى كيف وجدت أسواقها ؟

الأميرة : دون أسواق أشبيلية حركةً ونشاطاً ، إلا سوقَ الكتب فلا أحسب بغداد أقامت مثلها ، دخلتها يا أبى فلبثتُ فيها ساعة أتأمل ما يقع فى جوانبها وأشهد النداء على نفائس الكتب وذخائر المخطوطات ، وهى فى أيدى الناس يقلبونها فى اعتناء وإشفاق كأنها كرائم الحجارة فى أسواق الجوهر .

الملك : وهل كنت تهتمين بكتاب هناك ؟

الأميرة : أجل يا أبى ، نودى على رسالة المنجم الضَّبى ، التى سماها : هل القمر مسكون ، وكنتُ سمعت بها وكنت أريد إحرازَها فسرّنى الظفر بها ، وكان بالقرب منى فتى حسنُ الهيئة ظريف الثياب هو لا شك من بنى البيوتات ، وكان ينازعنى الرغبة فى الرسالة . فلم يزل

يزيد فيهـا-وأنا أحرجه فأزيد حتى بلغها إلى خمسمائة دينار ، فقبضتُ يدى فرجع إليه المنادى فأخذَ المال وناوله الرسالة .

الملك : لا أظن حرص الشاب على الرسالة إلا للمباهاة ، ولكى يقال عنده خزانة كتب حوت كل ثمين ونادر حتى رسالةَ المنجم الضبى ، فإن الشهرة فى قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذ الخزائن للكتب حتى الذين لا علم لهم بما فيها .

الأميرة : ظلمت يا أبى غريمى الشاب . فقد كنتُ ألحظ عليه الحرص على الرسالة والسعى لإحرازها حتى ما بقى فى نفسى شك أن الفتى من أهل المعرفة والاطلاع .

الملك : وكيف هو يا بثينة ؟ وما شكله ؟ ما صفته ؟

الأميرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل ، وقور ، يشبهك يا أبى أو كأنه أخى الظافر ، وما كان أعظم أدبَه ومروءتَه ، فإنه حين غلبنى على الرسالة بادر فقال: أيها الفتى الملثم!

إن كان اعتناؤك بهذه الرسالة شديداً كما رأيت فعرفنى
بموضع إقامتك وأنا أستصنع منها نسخة وأبعث بها
إليك ، فشكرت واعتذرت بكثرة أسفارى فى
الأندلس ، فانطلق شديدَ الفرح بما نال وكان جواده
بانتظاره فاعتلاه ، فوالله يا أبى ما رأيت قط بعدك
وبعد أخى الظافر أرشقَ وثوباً على جواد ولا أحسنَ
قياماً فى صهوة من غريمى الشاب .

الملك (مبتسما وهو يضع يده على كتفها) : أخشى يا بثينة أن
يكون غريمك الشاب أعرف بتصيد القلوب منه
باعتلاء الجياد .

مقلاص : الآن عرفته ، هو فتى السوق ، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤ ويقول]

الجماعة يتواردون على مجلس الشراب أيها الملك فانظر
ماذا تأمر ؟

بثينة : وأنا أيضاً ذاهبة لبعض شأنى إن أذنت .

الملك : فى كلاءة الله يا بثينة .

[تخرج بثينة]

المنظر الثانى

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب إلى جانبه ستر مسدل »
« وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته ، وتطل »
« هذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للملك زورق »

الملك : ما عندكَ من الشراب لأصحابنا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : خمورُ مالقة وزبيبي أشبيلية .

الملك : وماذا هيأتَ لهم من نقل وطعام ؟

لؤلؤ : الجوز واللوزُ من وارى الطلح .

الملك (يرفع عقيرته ويغنى) : الجوز اللوزُ . يا ربّ الفوز !

أحد الحاضرين (إلى جاره) : هذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتف
به حتى فى الحمام .

مقلاص : ولحنى أيها الملك ، أتسمعه ؟

الملك : قل ، هات يا مقلاص .

مقلاص (يغنى) الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز(١) .

الملك : مرحى ! مرحى !

الحاضرون جميعاً : مرحى مرحى !

الملك (لمقلاص) : تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف . . هل أفليه ؟

الملك : تأدبْ يا وَقَاح ، القمل لا يوجدُ فى رءوس الملوك .

مقلاص : ما أدرى يا مولاى ، ولكنى أعلم أن القملَ يوجد فى لبـدةِ الأسد ، وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

الملك : لله ما أمر لسانك وما أحلاه ، فهو كمشرط الجراح الماهر ، جمع مرارةَ القطع وحلاوة الشفاء .

الملك (إلى لؤلؤ) : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كُلُّ ما لذَّ وطاب من السمك . . بعضه مجلوب من بحر الزقاق وبعض من صيدِ الوادى الكبير .

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الملك (يغنى) : الجوزُ اللوزُ يا رب الفوز .

الملك (إلى وزيره ابن سعيد) : ماذا يقولون فى المدينة يا بنَ سعيد؟

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهل أشبيلية إلا تلك النكبة التى حلت بأبى الحسن التاجر .

الملك : واهاً لأبى الحسن ، وويح الأندلس ! ما أعظم مصيبته فى تاجره العامل الموفق الأمين !

الملك (إلى ابن سعيد) : وكيف وقعت الكارثة يا بن سعيد ؟

الوزير : كانت لأبى الحسن التاجر فى لجج البحار ثلاثُ بوارج وهى : الزُّهرة ، والثريا ، والجوزاء . خرجت الزهرة إلى الإسكندرية تحمل إليها مقداراً عظيما من الزيت الأشبيلى ، فأخذها عاصفٌ فغرقَتْ فى الطريق . وأقلعت الثريا بعد ذلك بأيام مشحونة بالمتاجر المتنوعة إلى ثغور الأندلس ، فصادفها أسطولٌ للفرنجة كان يتجوّل على الشواطىء فأخذها مَغنما بارداً . وكانت الجوزاء قد سبقت أختيها إلى عرض البحر

تقصـــد سواحلَ المغرب محملة بالشيء الكثير من مصنوعات الأندلس ومتاجره ، فشبت فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطت شعلة فى الماء .

الملك : ويح لأبى الحسن ويح !!

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغت الدنيا منه ، فصيبته أقصر عمراً وأهونُ وقعاً من مصيبة ابنه الواحد وولده النابه الشاب حسون .

الملك : قد ذكر لى اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثيرٍ من الناس .

الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق ما نعتوه : شابٌّ جميل وقور جرىء ، وافرُ القسط من العلم والأدب ، تعلم لغة الإسبان حتى أجادها حديثاً وكتابة يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمه .

الملك : إن شاباً هذا شأنه وهذه همته فى الحياة لا يتركُ نبوغه سدى ولا يوكَلُ إلى اليأس القاتل ، بل يجملُ بنا أن

نأخذ بيده فنهون عليه عثرة أبيه البرىء .

الجماعة (يتهامسون) : ما هذا الستر ؟

آخر (همساً) : ترى ماذا يخفى هذا الستر ؟

ثالث (همساً) : ماذا خبأ الملك وراءه ؟

الملك : فيم تتهامسون ؟ لعلكم تذكرون الستر ، اشربوا الآن ما بدا لكم واطربوا ، وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد وزعت عليكم من أيام وفد النصارى من نبلاء الأسبان فماذا صنعتم بهم ، وكيف أنصبتكم؟

الملك (ملتفتاً إلى وزيره دانى) .

الوزير دانى : كانت حصتى يامولاى أطيب الحصص ، فضيفى شابٌّ نبيل طروبٌ لطيفُ الأذن ، مولع بالقيثارة لا يضعها من يده وله عليها ضربٌ يأخذ بالألباب .

الملك (مبتسما : يسأل آخر من الجلساء) : وأنت يا بن الصائغ كيف ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوان حظاً أيها الملك ، فضيفي رجل كهل قسيس يقطع الليل بالصلاة وقراءة الإنجيل .

الملك : بل لعلك أعظم الجماعة حظاً ولا تدرى .

ثالثاً من الجلساء (مخاطباً الملك) : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجل شيخ شريب خمر لا يُرويه فى اليوم دن ولا دنان، فإذا كان قبل كل طعام قدمتُ له زبيبي أشبيلية فأقبل يعبه عباً كما يقمح الظمآن على الماء الزلال ؛ وقد شرب من خمر مالقة فى ثلاث ليال أقامها عندى ما يكفيني أنا شهراً. وأنا الذى يعرف الملك ولعى بالخمر المالقى.

الملك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفك وما حاله ؟

لؤلؤ : إنه شاب يا مولاى خفيف الظل والروح ، مولعٌ بالرقص ، وأنا أتلقى عليه كل ليلة دروساً فى الرقص الأسبانى حتى كدت أحسنه .

الملك : وأنت يامقلاص ، وكيف ضيفك وماذا يصنع معك ؟

مقلاص : ضيفي يا مولاى رجلٌ كهل بادن ضخمُ الجثة كالخنزير المتولى البطن من تراكب الشحم واللحم ، إذا جاء فى البيت وراح ارتجت الجدران واهتز ما على الرفوف من آنية ، وإذا نام خرج الغطيط والنخير من حلقه ومن أنفه ومن كل موضع فيه ، ولو نام فى جبانة لأيقظ غطيطه الأموات .

الملك : وكيف طعامه يامقلاص ، وما أحبُّ الألوان إليه ؟.

مقلاص : هو يامولاى مجنون المعدة بالإوز . له كل صباح على الريق إوزة وغداؤه إوزة ، وعشاؤه . . .

الحضور جميعاً : إوزة .

الملك (ملتفتاً لوزيره دانى) : وما عندك أنت يا دانى مما يقولون فى المدينة ؟

دانى : يتهامسون فى المدينة بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة ، وأن القادرَ صاحبَ طُليطلةَ يسعى لأخذها من ولدك الأمير الظافر ، وأنه يستعين فى دسه وكيده وتدميره بالبطل حريز وصاحبه إبن لاطون .

الملك : الولايات يا داني كخلايا النحل ، فيها العسل وفيها الأسل ، وأنا واثق بحزم الظافر وعزمه والله يفعل بعد ذلك مايشاء . إن ضيوفكم النبلاء أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعة .

الملك (إلى جوهر) : وأنت ياجوهر انظر أين الجنديان ؟

جوهر : بالباب يامولاي .

الملك : أدخلهما .

جوهر : يدخل الجنديان .

الملك (إلى الجنديين) : أين الكلب ؟ أجئتما به ؟

الجنديان : هو بالباب يامولاي يرسف في قيوده .

الملك : أدخلاه .

(يدخل ابن شاليب اليهودي يجر قيوده)

ابن شاليب: التحية والإجلال للملك .

الملك : تحية لا نتقبلها من رجل شتمنا بالأمس بمسمع من رجالنا وأعواننا .

ابن شاليب: معاذالله أيها الملك . ماشتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيت أنى نزيل هذه المملكة ، يجب علىّ لصاحبها التوقير والإكبار .

الملك : بل أنت تكذب يا بنَ شاليب .

ابن شاليب: على رسلك أيها الملك ، أنسيت أن ورائى ملكا عظيما يسأل عن أمرى وأنا سفيرُه عندك ورسوله إليك ، وقد يغضب لى إن أنت نلتنى بسوء .

الملك : فإن كان السفير وقاحاً قليلَ الأدب ؟

ابن شاليب: هذا كثير أيها الملك فاجعل للاهانة حداً ولا تنس لى مكانى .

الملك : ستعلم مكانك بعد قليل .

(إلى ابن وهب)

أعد يا بن وهب على هـــذا الكلب ما لهث به حين عرضت عليه مال الجزية .

ابن وهب : لقد همَّ مولاى برد المال معتلا بسوء العيار ونقصان

الإتاوة عن السنة الماضية وقال : بلغ سيدك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذ عينيه .

ابن شاليب: هذا كذب واختلاق .

الملك : بل أنت الكذاب ! فما أنا بالملك الذى يكذب عليه وزراؤه وأعوانه ، وما شرفُ الأندلس وجلاله إلا عدلُ قضاته وقلة شاهد الزور فيه .

ابن شاليب:(يمرغ خديه على البساط ويقول) : ألا تعفو أيها الملك الكريم ، فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملك : إلا ما مس الشرف والكرامة .

ابن شاليب: أتقتلنى أيها الملك من أجل كلمة سبق بها لسانى وأعمانى الغضب فلم أزنها ولم أقدر عواقبها ؟

الملك : عجباً ياوزير ألفونس .! أنت تزن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلا يفلت من حسابك بُرادة مثقال، ثم لا تحسن أن تزن كلمة تخرج من فيك ! .

ابن شاليب: اعف عنى واستبقنى أيها الملك وأنا أشترى منك حياتى بوزن جسمى ذهباً .

الملك : لا والله ولا بثقله لآلىء ويواقيت ، وأنا أعلم أن وراءك ملكا عظيما هو عبدالمال ، أما أنا ياابن‌شاليب فعبد الله .

الملك (للجنديين) : أيها الجنديان خذا هذا المجرم فأمضيا أمرى فيه.

(الجنديان ينقضان على ابن شاليب
فيأخذانه إلى ماوراء الستر المسدل)

الحاجب (يدخل) : نبلاء الأسبان بالباب يامولاى .

الملك : يدخلون .

كبير النبلاء: التحياتُ للملك .

الملك : مرحباً بضيوفنا النبلاء . تفضلوا وخذوا مجلسكم واطرحوا الكلفة .

كبير النبلاء: شكراً يا مولاى ، هذه الحفاوة بالضيف لا تستغرب من ملك العربِ الكريم .

الملك : تعال اجلس بجانبي أيها النبيل .

(يجلس كبير الأسبان حيث أشار الملك .
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب والنقل)

لؤلؤ : ماذا تشتهى من الشراب ؟

كبير الأسبان: ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك فإنى لا أقدم على زبيبها الصافى المعطر شيئاً .

أحد الحاشية (فى أذن جاره) : انظر السكير يا أخى كيف تجاهل خمر مالقة وكيف نسى أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليال أقامها عندى .

(ضجة وشراب وأحاديث همس)

الملك (إلى لؤلؤ) : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقاص .

لؤلؤ (يشير إلى أحدهم) : هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك (إلى الأسبانى) : إن فتاى لؤلؤ أيها النبيل مغتبط بما تعلم عليك من أصول الرقص .

الأسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرع خاطراً ولا أرشقَ

حركات ولا أحسن حفظاً لما يلقى عليه فى فنون الرقص من صاحبى لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابنُ حزم يحسن الضرب على القيثارة ، وقد تعلم فى صغره الكثير من ألحانكم ونغمات رقصكم .

الملك (إلى لؤلؤ) : فليرقص لؤلؤ على إيقاعه .

الملك (إلى الأسبانى) : وأنت ترسم له أيها النبيل النغمة التى تصلح للرقصة .

(لؤلؤ وصاحبه الأسبانى يرقصان ويعزف لهما ابن حزم ويصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والإعجاب)

الملك (فى جد إلى جليسه الأسبانى) : أيها الضيفُ النبيل . أمرٌ يَشغلُ بالى ويهتمّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد رأيتُ أن أنتهز فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الأسبانى : ليس أحبُّ إلىّ أيها الملك ولا أزيدَ فى شرفى من

مشورة خالصة نافعة ألقيها إلى جلالتك .

الملك : إذن فاعلم أيها الضيف النبيل أن أحد جيراننا الملوك أوفد إلىّ رسولا فى مهمة معلومة ، فنسى الرسول مكانى حتى سبنى بمسمع من رجالى وأوعد وتهدّد ، فما الذى يقضى به عُرفكم على رجل هذا فعله ؟

النبيل الأسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك (إلى النبلاء) : أسمعتم يا معشر النبلاء ؟

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

الملك : إذن فانظروا .

الملك (ثم لأحد الجند) : أيها الجندى ارفع الستر .

(يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود)

الجماعة صائحين : ابن شاليب ؟

الملك : هذا صاحبكم ابن شاليب قد رمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهب بتزوير العيار والغش فى الميزان وقال لرجالى

وأعوانى : بلغوا سيدكم أننى آت فى العـــام القابل فـآخذ عينيه من رأسه .

أحد الجماعة مستنكراً : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبتنــــا بهذا المنظر ؟

الملك : لقد ترددت بين أن أقتله بأعينكم وبين أن أعرضه عليكم وهو كما ترون جثة بلا روح ، ولـكننى وجدت فى الرأى الثانى تخفيفاً على ضيوفى فعملت به .

(ثم ينهض الملك علامة الإذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم) .

الملك : انقلوا أيها النبـــلاء إلى الملك الفونس ما سمعتم ، وصفوا له ما رأيتم ، وتحـــدثوا به فى طول بلادكم وعرضها ؛ ليعلم الناس هناك أن الأسد العربى لا يُشتم فى عرينه وأنه لو غلب على غابته حتى لم يبق له منها إلا قاب شبر من الأرض لما استطاعت قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامته من قاب هذا الشبر .

(ينسل النبـلاء الأسبان من المنظرة وهم يجرون سيقانهم جراً من الرعب)

الملك (إلى حاشيته) : الآن يا نبلاء العرب نطوى هذا البساط
ويبق هذان الجنديان ، حتى إذا خلت منا المنظرة
رفعا الستر عن جثة ابن شاليب ، ليعلم أهلِ أشبيلية
كيف يحل العقاب بمن يجترىء على شرفِ أميرهم
الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك نشوان ومعه مضحكه مقلاص يدنو من »

« زورق على الوادى الكبير فيثب فيه ويقول »

الملك : انظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كل صغير لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصرك ، فإنها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هذا الزورق قد ينقلب فيأخذ شكل النعَش ولن يكون النعشُ لطيفاً أبداً .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشاً ؛ أليس النعشُ مركبَ كل حى وإن طالتْ سلامته !

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص ، لا أعفيك ، ولا أحسبك تدعنى أسير فى لجة النهر وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فإني أقترح .

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدِّف وحدي .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بين ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون . وهذا الزورق خشبة لا عقل لها فهو أيضاً مجنون ؛ وإني أربأ بحياتي أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك (مستضحكا) : لا يكون إلا ما اقترحتَ يا مقلاص ، تعال اركب وجدف وحدك واترك لي أنا الدفة .

مقلاص : أما هذا فنعم . وإني أرجو أن تكون دفة هذا المركب الصغير أحسن مصيراً في يديك من دفة المملكة .

الملك (مستضحكا) : تعال ثب ؛ هات يدك .

(مقلاص ينزل إلى الزورق ويأخذ المجدافين)

الملك : انظر يا مقلاص وراءك إني أرى قارباً يندفع نحونا

مسرعاً كأنه حوت مطارد مذعور .

مقلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى ، فأحسن مسك الدفة واجتنب الصدمة وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضربة تقذف به إلى الشاطىء الآخر من النهر .

الملك : إياك أن تفعل، بل ائسره ، فلابد لنا أن نؤدب هذا الشاب المغرور ، فإنى أرى الملاح فتى كريم الهيئة فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

(يصطدم الزورقان ويظهر مقلاص ارتباكاً وجبناً ، فيقبض)
(الملك على الزورق المهاجم بيد قوية ويقول لمقلاص)

الملك : اقذف الآن به إن استطعت إلى الشاطىء الآخر من النهر (ثم يلتفت إلى الشاب الملاح ويقول) : مكانك أيها الغلام الوقاح ، ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هـــذا الغض النضير ! وماغرك بالملك حتى قربت عوذك من عوده تريد أن تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاى ، إن الرعية يهفون ، وإن الملوك يعفون ،

وزورقى إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرور مركبك المحروس ، فكان ما كان مما أعتذر للملك منه.

الملك (بصوت منخفض) : ويح أذنى ماذا تسمع ؟ هذا الصوت أعرفه ؟ (ثم يلتفت إلى الملاح قائلا) : قد عرفت أيها الفتى من نحن ، فعرفنا بنفسك .

(يرفع الملاح قناعه) .

الملك (صائحاً) : بثينة !

الأميرة (الملاح) : أجل أيها الملك ابنتك وأمتك بثينة .

الملك : عجباً ! أأنتِ هنا بين العبب والتيار وعلى هذا العود الذى يشفق أبوك من ركوبه ، وأبوك من تعلمين أشجع العرب قلباً !

الأميرة : ولم لا تكون ابنة الملك شجاعة القلب مثله ! إن الأسد لا يلد إلا اللباة .

الملك (يهدأ غضبه) : ومن أين مجيئكِ الساعة يا بثينة ؟

الأميرة : من الموضع الذى أحبه كما أحبُّ الحجرة التى ولدتُ
فيها ، ومن ناحية السرحة التى أحِنُّ لها كحنينى
للمقاصير التى ضمتنى طفلة بمهدة ، ومن بُقعة مباركة
وقفت السعادة بك فى ظلها على أمى الرميكيةً فرأيتها
فأحببتها أولَ وهلة . ولم تكن إلا غسالة مغمورة
فتزوجتها فرفعتها أعلى ذرى الشرف ، ومن هذا
الزواج الموفق السعيد ولدتُ أنا الأب قصر الآباء
عن بره ، وملك جل عن النظراء والأمثال . أليس
ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن
يحنَّ إليه أحياناً ، بل من حقه أن يُحج آناً فآناً !

الملك (متأثراً) : بنفسى وروحى أنت يا بثينة ! لقد عظمت
المهدَ وقضيت الحقَّ ؛ والآن ألا ترجعين إلى القصر
بسلام ، فلا أحسب القصر إلا قائماً لغيبتك على
ساق ، حتى لكأنى بأمك تسأل عن أمرك ،
وبجدتك أشغلُ وأشدُّ قلقاً .

الأميرة : لقد كنت يامولاى فى طريقى إلى القصر لولا هذا الاتفاق

السعيد الذى صدم عودى بعودك ، والآن إذ أمرت
فإنى أنطلق فى سبيلى ، وأستودعك الله يا مولاى .

الملك : اذهبى يا بنيتى فى كلاءة الله ، وإياك والمجاذفة فيما تفعلين ، فإن الحياة أعز وأنفس من أن تُعرّض للتهلكة ، وأنهاك عن الخروج بعد اليوم إلا مصحوبة بلؤلؤ أو جوهر ، فإنهما لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة : لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

(تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك ، وقد أطرق ملياً إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة)

مقلاص : مولاى إن الشط قريب وإن الأرض أصلح مجلساً لمثل ما أنت فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة وكيف وجدت جرأتها يا مقلاص؟

مقلاص : تلك اللباة من هذا الأسد يا مولاى .

الملك : ما كل جرىء فطن ، وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . إنها تعلم أننى رجل رقيق القلب مجيب

العاطفة ؛ وتعلم كذلك أن شيئاً من النفور قد دخلني نحو أمها منذ حين ؛ فانظر كيف تحيلت حتى ذكرتني العهدَ القديم ؛ فوالله ما أنا الساعة بأقلّ حباً للرميكية ولا عطفاً عليها مني منـــذ عشرين سنة . جدف يا مقلاص جدِّف . سبحانك اللهم ، جعلت الولد سفير المودة والرحمة بين الوالدين .

(يندفع الزورق)

الملك (يغني) : الجوز ، اللوز ، يارب الفوزُ .

مقلاص (يجيب) : الجوزُ اللوز بوادي الحوز .

(ستـــار)

الفصل الثانى

« خان التميمى فى أشبيلية حيث صفت الموائد والأرائك »
« وجلس إليها قوم يتحدثون ويحتسون الشراب. ابن حيون »
« منفرد وحده إلى مائدة ، وأبو القاسم قادم عليه من باب »
« الخان . حريز يجلس إلى مائدة أخرى وأمام ابن حيون »
« ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج أو يطالعون »
« بعض الرسائل ... ... »

أبو القاسم: ابن حيون ؟ ما أطيب هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدى أبو القاسم؟ يامرحباً يا مرحباً ، ها هنا صُدفة لينة ومجلس كريم فلو جلسنا نتحدث . أزائرى أنت أبا القاسم أم جئت الخان فى شأن يعنيك ؟

أبو القاسم : بل إياك قصدت يا بن حيون ، وإن الشوقَ إليك لشديد .

ابن حيون : شوق بعضه من بعض يا أبا القاسم ، ولكن من أنباك أنى مقيم بخان التميمى ؟

أبو القاسم : لقد عرفناك كالرواد الرجل ، لا ترى إلا فى خان أو عند دوارس الأحجار .

ابن حيون : الخان والسوق يا أبا القاسم مدرستان من مدارس الحياة ينتفع بهما الرجل الأريب . ألستُ فى هذا الخان كل يوم أبدل أهلا بأهل وجيرانا بجيران ، وأستعرضُ صوراً متحركة من الخلائق كلما احتجبت صورة خلفتها صورة . وكيف حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثَ هناك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فما لها من صلاح ، والحوادث يابن حيون تتوالى ولا تتولى ، واليومُ مغبر والغد مكفهر .

ابن حيون : ابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابنَ عباد يا أخى ، لا تجر ذكره بسوء فإنه السيف الذى يرجوه العرب ، والحصن الذى يحتمون غداً فيه .

ابن حيون : لم تنصفْ يا أبا القاسم ؛ طبعتَ للعرب من الخشب سيفاً ، وبنيت لهم من الشفير الهائر حصناً .

أبو القاسم : اتق الله يا بن حيون ... بعض هذا البغى ... للمعتمد من المحاسن ما يغطى على مساويه ؛ أجهلت إحسانه على أهل العلم وعطفه على أهل الأدب؟ أجهلت كيف يربى أولادة تربية لم نعرفها من الأمراء والملوك ؟ أجهلت كيف يعامل الرميكية زوجته الفاضلة معاملة تحسدها عليها عقائل الأندلس ؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم ؛ من ههنا دائى وهنا ثأرى عند صاحبك ابن عباد ! _

أبو القاسم : يا عجباً كل العجب ! ما هذا الثأر ؟ ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمع أبا القاسم وأنصفنى ...

أبو القاسم : تكلم يابن حيون فكلى مسامع .

ابن حيون : كنت فى صدر شبابى صياداً شاباً مليحاً ، رأس مالى شبكة ، وقوام معيشتى سمكة ؛ وكانت تختلف إلى المواضع التى أختلف إليها من النهر للصيد وابتغاء الرزق صبية غسالة حلوة الدلال بارعة

الجمال ، كأن حديثها السحر الحلال ، فانعقدت بيننا
ألفة ؛ وكانت لنا مجالس على الماء كأنها أعراسُ
النهر ، ولقاءات على الوادى الكبير كأنها أعيادُ
الدهر ، أحببت الصبية وأحبتنى ، وتكلمنا فى
الزواج وشرعنا نأخذ له أهبته .

أبو القاسم (مقاطعاً) : وبينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر
فلك عليه شارة الملك ، يحمل ملكا شاباً جميلا ، فنظر
الصبية فراعه حسنها ، وكلمها فأعجبه أدبها ، وارتجلت
الشعر بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغاية ، فتزوجها من
يومه فملأت قصورَه غبطة وبهجة ، وولدت له
الشموس والأقمار . هذا حديث الرميكية يا بن حيون
وهذا خبر زواجها يعلمه كل من فى الأندلس
ويتناقلونه بالإعجاب ، ويتحدثون أن بنت الشعب
نزلت قصور الملك من أول يوم نزول الأقمار فى
هالاتها من عشرين عاماً إلى اليوم قدوة عقائل
الأندلس والمثال الأعلى بين أميراته وملكاته ؟

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حتى احتقرتْ حبي واستهانت بخطبتي ؟ وكيف تريد مني بعد ذلك أن أكون لصاحبك المعتمد من المخلصين .

أبو القاسم : هب الأمر كان معكوساً يا بن حيون ، وهب الفلك الفلك الذي وقف يومئذ بكما كان ملكة شابة فاتنة الجمال ، بيمينها الجاه ، وفي شمالها المال ، فنظرتك فأحبتك ودعتك لتبنى بها وتشاطرها عـزة الملك وثراءَ المال ـــ أتراك كنت تعرض عن الملكة وفاء بعهد الغسالة ؟ لا والله يابن حيون ، ما كنتَ فاعلا ذلك . وهذا ما فعلت الرميكية : رأت ملكا كبيراً وشباباً نضيراً وفضلا وأدباً غزيراً ، فخلت نفسها من ذلك الوداد ، وفضلت أصيد على صيـاد ، عرفت يابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمت . بقي المعتمد ، وأنا لا أجده اقترف إليك ذنباً أو أراد لك ضراً بل أنا أقسم لو علم ابنُ عباد يومئذ بما كان

بينكما من الحب وما صرتما إليه من الخطبة ووشك الزواج لأخذكما فى كنفه وتكفلت لكما نعمته بالزواج ونفقته ، وبالبيت وجهازه ، وبالضيعة التى تغل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

(ابن حيون مطرقاً)

أبو القاسم : ابنَ حيون . ما بالك مطرقاً لا تنبس ! ما بالُ عينيك تمتلئان ؟ استرح يا أخى للبكاء واسكب دموعَ الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقد حملته عشرين عاماً حتى حنى الظهرَ وأكل الصدرَ وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكين أنت ابن حيون ! إن حقدَ عشرين عاماً لو جمع وقذف به فى جهنم لكان لها منه وقود لا ينفد .

ابن حيون : لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم ، فأرشدنى كيف أعتذر إلى الرميكية عن سوء ظننت ، وبغض أسررتُ وأعلنتُ . وكيف أكفر عما سلف منى

فى ذات المعتمد من جهر السوء وهمسه .

أبو القاسم : يغفر الله لك يا ابن حيون ، إن الحقد ما خرج من قلب
إلا دخلته الرحمة ، وإنى لأرجو أن ستحبُّ صاحبيك
وترحمهما وتحسن إليهما كلما وجدت إلى الإحسان سبيلا .

(يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف)
(على المائدة التى جلس إليها حريز وابن لاطون)

قيم الخان : لعل السيدين قد وجدا الراحة فى هذا الخان الصغير
ببنائه الكبير بأقدار رواده ونزلائه ؟

حريز : ومن السيد ؟

ابن لاطون : هذا الأديب التيمى صاحبُ الخان وقيمه .

قيم الخان : لعل أيها السيدان بحضرة الأمير حريز أسد الأندلس
وصديقه ابن لاطون فى الجزيرة .

ابن لاطون : هو ذاك يا أخا تميم ؛ هذا الأمير حريز بطلُ الأندلس
وواحده ، وأنا ابن لاطون خادمه وكاتب ديوانه .

قيم الخان : يا طيب هذه الزيارة وما أعظم شرفى بها ، لقد مر
بنا أيها منذ ساعة ركبان حدثونا العجب عن ذلك
السباق الذى أقامه ملك الفرنجة ألفونس فى معسكره
إكراماً لك وحفاوة بك ، وخبرونا كيف
احتلتَ على الطاغية فرقت من ذلك الجيش الجرار
ناجياً بجوادك الصاعقة وظافراً بالأمير بطرس شقيق
الطاغية .

حريز : وكلاهما الساعة تحت سقف خانك هذا ؛ ففى بعض
غرفه بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه من الراحة ،
وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويستجم .

قيم الخان : يا فرحا يا شرفا ! أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى ! نبأ
والله عظيم ، لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس
فتشتغل الدنيا بالتيمى ويهتم بخانه النحاس .

حريز : والصاعقة أمير الجياد ، أنسيته يا رجل ؟ إن اسطبلك
ليتيه به على مغانى الفرنجة وقصورهم فاذهب فمر رجالك

أن يعتنوا به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعة
والأسباب فيضعوا ذلك كله فى هذه الزاوية من الخان.

قيم الخان : سيكون ما أمرت يا سيدى .

(يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان)
(فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به)

الأمير حريز: الأمير بطرس ؟ لعلك أخذت قسطك من الراحة .

الأمير بطرس: أجل قد استرحت يا حريز ، والآن خبرنى ماأنت
صانع بى ؟ لقد أصابت الحبالة فما أنت صانع بالصيد؟

حريز : إنها أيها الأمير حبالة كريم .

بطرس : ولكنى على كل حال أسيرك يا حريز .

حريز : أجل ، ولكنك الحاكم فى الأسر .

بطرس : لم تنصف أخى الملك يا حريز ، اطمأن عليك لخدعته،
ووثق بك وخنته ، وأطلق لك جوادك الصاعقة
وأسرت أخاه !

حريز : نحن فى حرب معكم أيها الأمير ، والحرب لا تسأل

عما تفعل ، وأنا صاحب حصن للعرب يحاصره أخوك ، وفى الحصن أبطال لا يعرفونَ الخوف ولكنهم بشر يعرفونَ الجوع ، ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفانى الكبير ؛ وحصنى يوشك أن يسقط بعد طول الحصار وضيقه .

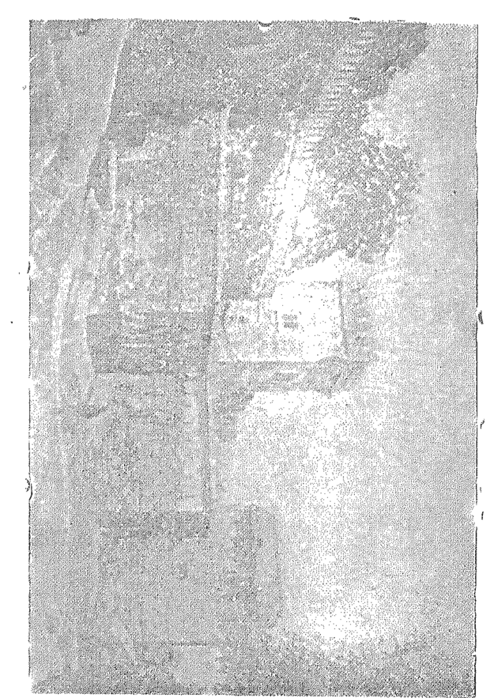
بطرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحصن ؟

حريز : أراك فهمت أيها الأمير .

بطرس : إذن فاعلم يا حريز أنك إن خليتَ الآن سبيلى فرجعت الليلة إلى معسكرى وقومى فإنه لا يُصبح الصبح حتى يطلقُ سراح كل من فى حصن رباح ، وينالهم من بر أخى وعطفه ما ينسيهم جراحهم ، ولا ينزع من رجالك سلاحهم بل تترك للأسد أظفارها .

حريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطرس : وأى الأقسام تريد أن أعطيك عليه ؟



قلعة من قلاع أشبيلية

حريز : إن الرجل الشريف كلمته قسم وإشارته يمين، فأنا أكتفي بما سمعتُ من وعدك ، فانطلق الآن محروساً بعناية الله وعد لأخيك الملك فبلغه تحيتي وإجلالي وخبره بأن ربحي من ذلك السباق كان عظيماً ، فقد غنمت صحبة أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضاً خلاص رجالي في الحصن ، وخرجت فوق ذلك من الميدان بكنوز طُليطلة وجواهرِ ملوكها بني ذي النون .

الأمير بطرس: كنوز طُليطلة ؟ خرجتَ بهـــا بين عين الجيش وأذنه ! يا لك من داهية عنيد ! أكانت هذه الكنوز معك حين أتيت للمعسكر ؟

حريز (ضاحكا): كلا أيها الأمير بل كانت في طليطلة وفي خزائن ملوكها بني ذي النون ، وإنما احتلتُ حتى حملت إليّ مع الصاعقة إذ أمر أخوك الملك أن يذهب إلى المدينة المحصورة من رجاله ورجالي من يأتي بالصاعقة .

بطرس : عجباً ! لقد رأيتُ الصاعقة حين جيء به من طليطلة فلم

أرَ عليه شيئاً من الأحمال والأثقال ، فهل كان يحمل
في بطنه الكنوز ؟

حريز(ضاحكا) : ولم لا تقول إنها كانت على ظهره أيها الأمير...
(منادياً) يا تميمي .

التيمي : مولاي .

حريز : ادفع إلى الأمير جوادہ قيصر وشيعه بفارسين من
أشد رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطرس : في حفظ الله يا حريز .

حريز : بذمة الله أيها الأمير .

(يخرج حريز مشيعاً الأمير بطرس إلى باب
الخان ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون)

ابن لاطون (يسأل حريز همساً) : لقد ذكرت أيها المولى كنوز
طليطلة للأمير الأسباني فأين هي منا الآن !

حريز : هي معنا يا بن لاطون بين أعيننا وفي خفارة سيفينا ،

ولكنك لا تراها ولا يقع فى وهم واهم بأى موضع
هى من الخان .

(يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنياً)

منادى : أناء ذا طاه أتاكم من شريش بقطائف
من يذوق حلواى يبرز لحريز غير خائف

حريز : لله ما ألذ الصوت وما أحسن الشعر !

ابن لاطون: وإنا نرجو ألا تكون القطائف دونهما لذة وجودة .

(حريز متجهاً إلى باب الخان)

حريز : تعال ياصاحبَ القطائف . أتعرف أيها الرجل حريزاً
الذى أشدتَ بذكره فيما أشدت ؟

البائع : أو تجهله أنت كائناً من كنتُ وهو عنترة البيد
وحيدرةُ الحى ونادرة الزمان ؟ أعرفه بأمسه ويومه
كما يعرفه سائر الناس .

حريز : وكيف صفته ؟

البائع : رجل عملاقٌ أشمُّ طويلُ الساعدين عبل شَمَردل .

حريز : كفى يا شريشى كفى ؛ اكشف عن بضاعتك لنرى أين

المنادَى عليه من النداء .

(البائع يعرض الصينية مكشوفة)

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى !

صوت آخر : تعالى الله ما أطيب !

حريز : بكم تبيعنى هذه الصينية يا رجل ؟

البائع : كل ما أعطيت مقبول أيها السيدُ الكريم .

حريز (ويلقى إليه صرة دنانير) : خذ هذه الصرة مباركاً لك فيها .

البائع : ولكم فى القطائف أيها الطاعم الكريم .

حريز (للحاضرين) : تعالوا أيها الإخوان نتقاسم هذه اللقمة الطيبة . تفضلوا . أقبلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذى ذاعت شهرته فى البلاد حتى قيل إن من دخل الأندلس ولم يذق من مجبنات شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئاً .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لطيباً يسكر من بعيد .

(الجميع يأكلون)

أحدهم : ما ألذ .

ثان : ما أطيب .

حريز (وهو يأكل ملتفتاً إلى ابن حيون) : ما بالُ الأديب لا يجيب الدعوة ؟

ابن حيون : إنى صائم أيها الأمير .

حريز : تقبل الله منك وإن أنتَ لم تقبل منا .

أحد الحاضرين (على المائدة وهو يأكل) : وهذه المائدة جمعت العلفَ والشرفَ . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسد الأندلس .

آخر : حق إن هذا لهو الشرف العظيم .

(يفرغون من الأكل)

حريز : يا ألله ما هذا الدوار ؟ ابن لاطو ...... ن .

ابن لاطون: وأنا أيضاً كأنى داخل فى غيبو ...... بة .

رجل (لصاحبه) : كيف تجد الدنيا فى عينك يا ضبِّى ؟ .

الضبى : مظلمة صاعدة نازلة .

الرجل : وأنا أيضاً أجد الدا ...... يبا .

أبو القاسم : لقد رُحِمتَ بصيامك يا بن حيون فإنى أظن القطائف طبخت بالبنج وأخذت تصرع ... نى .

ابن حيون (مذعوراً) : ياويح للجماعة غودروا صرعى ، وويح لك أبا القاسم سقطتَ سليبَ العقل والحراك .

(يظهر صاحب القطائف ويصفر فيدخل جماعة من اللصوص)

ابن حيون (وقد امتلأ المكان باللصوص) : يا ألله ! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصمنى منها إلا الصيام .

ثم لنفسه (همساً) : تناوم يا بن حيون (ويتناوم على مقعده) .

صاحب القطائف : يا أصحابَ الباز ، غداً يتحدثُ الأندلس أن صاحبكم صرع الأسد وأخذ الصاعقة من فارسه الجبار ، وقد خصصت نفسى بأمير الخيل الصاعقة فهو حصتى من غنائم اليوم وما سواه فهو لكم تقتسمونه بينكم ، فدونكم الجيوب ففتشوها وعليكم بالحقائب

فانبشوها وخذوا أثاث الخان وعروضه ، كل ما خفت زنته وعظمت قيمته .

أحد اللصوص: ولكن الصاعقة عريان لا سرج عليه أيها الزعيم .

الباز : بجياد الأندلس جميعاً هو كاسياً كان أو عرياناً ؟

لص آخر : لقد لمحت أيها الزعيم في زوايا الإسطبل سرجاً محلى بالذهب والفضة .

الباز : أو أنتم تاركين لى السرجَ المذهب المفضضَ أيها الأصحاب !

اللصوص: نحن وما نملك للزعيم .

الباز للص: إذن فاسبقني يا شهابُ فضع السرجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرني هناك .

(يأخذ اللصوص في السلب والنهب وينسلون واحداً إثر واحد بما حوت أيديهم ويبقى رجل منهم فينحني على سرج عاطل يتأمله ، ويظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى في مجلسه ، ويقع نظر اللصوص عليه فيرمى السرج العاطل عليه قائلا)

أحد اللصوص (لابن حيون ويرمى عليه السرج العاطل) : خذ يا شيخ

السوء هذه الخشبة لعل فيها العوض عما أفاتك الصيامُ
من القطائف .

(ويخرج اللص)

ابن حيون (لنفسه) : شلت يد اللص ، لقد قذف السرج بقوة حتى
كسره ، ولو أصابني به لتركني جثة بلا روح ، يالله !
ترى أيُّ شيء في فروج هذا السرج .
(يدنو منه ويمسك به ثم يتأمله ويدس فيه يده)
رب ما هذا الحصى ! أي مجنون يملأ سرجه بهذه
الأحجار !
(ثم يستخرج عدداً من الأحجار البارقة
ويقلبها بين يديه مذهولا قائلا . . .)
لآلىء ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر ، إن الذي حشا
رأسكَ بالعلم والفقه قد حشا رُدني باللآلىء
واليواقيت .
(ثم لنفسه) : يا ابن حيون آين يُذهبُ بك ! هذا كنز ملك

عظيم من أقيال الروم جدّ به الحرص وخاف امتدادَ
الفتنة إلى كنزه ، فاختار له هذا السرج البالى وفى نفسه
أن يصونه أو يموتَ دونه فأخلف الدهر ظنونه .

(يجمع اللآلىء بين الدهشة والاضطراب ويقول)

ابن حيون (وينظر إلى اللآلىء) : لآلىء ! يواقيت ! ماس ! زمرد !
رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبود الناس بعدك !
هذا هو المال .

(ستـــار)

الفصل الثالث

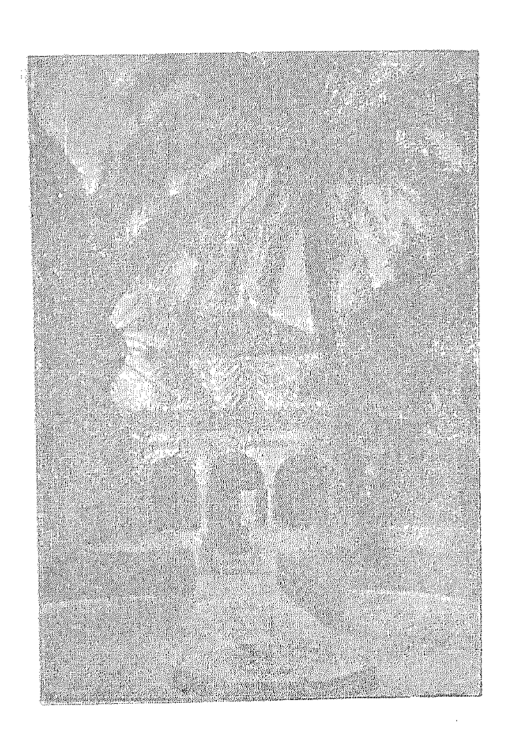
« بستان أمام دار أبى الحسن . إلى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطىء »
« الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هذه الساحة وبين يديه »
« تابع له هو (سعيد) وجماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون »

أبو الحسن : ما هذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه ، فمن الرجال يا سعيد وما يبتغون ؟

سعيد : هذه الوجوه تحومُ على الدار منذ حين يا مولاى وتسأل عن أجزائها وتستفهمُ عن مشتملاتها ، وتتحدث عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائس الأسفار .

أبو الحسن (رافعاً وجهه إلى السماء) : لطفك اللهم ! لقد لهج الناس بالنكبة واشتغلوا بالمنكوب وما أولع الناس بالناس !

(ثم إلى الرجال) : أيها الرجال تعالوا فإن كنتم ضيوفاً فيامرحباً



دار أبي الحسن التاجر

بكم وإن كانت لكم حاجات تريدون قضاءها فهاتوا اذكروا .

أحدهم : إيذن لى يا سيدى التاجر أن أصارحك القول ، فليس مركزك بسر ، والدارُ معروضة لا محالة ، فلنبعها اليوم ، فقد تغبن جداً فى الغد .

أبو الحسن : أتشفق على الدار أن يكسد سوقها فى غد ؟ أم تشفق على نفسك أن يكون السمسار غيرك ؟ ... بكم قومتم الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأى ثمن تعطون ؟

أحدهم : عندى المشترى لها بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر تحمل إليك فى الصباح إن قبلت .

أبو الحسن (إلى الثانى) : وأنت فماذا عندك ؟

الثانى من السماسرة : عندى الراغب الذى يزيد خمسة آلاف دينار .

أبو الحسن (مشيراً إلى الثالث) : وهذا الثالث ماذا عنده ؟

الثالث : عندى أيها السيد صديقاً لك لا أسميه يريد أن يشترى مكتبتكَ بالثمن الربيح ، فهل أنت بائع ؟

أبو الحسن (فى غضب) : والمكتبة أيضاً أخذوا يتحدثون فى شرائها ! ووسادتى وفرش نومى أما لهما عندك من طالب أيهـــا الرجل ؟ اعزُبْ عنى ! اعزُب وخذ صاحبيك معك وانطلقوا ، إن النكبة لم تبلغ بعد تمامها ولم تبلغ معها إلى اليأس .

(يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتاً إلى الرجال الثلاثة قائلا)

المغربى الشيخ: تلك والله وقاحة !

أحد السماسرة : حجلت فيها يا وجه النحس !

(ينصرف السماسرة)

أبو الحسن (يناجى نفسه) : ظهر فيكِ السمسارُ يا دار ! اللهم أنت أعطيت وأنت أخذت وأنت تعلم أنى لست التاجرَ اللص ولا المحتـــال ، فالطف بى فيما قضيتَ وأعن ولدى حسوناً على ما يواجه من فرار النعمة وانتقال الأيام (ثم يشعر براحة ويقبل على الشيخ المغربى قائلا) : وأنت يا شيخ البربر ما وراءك ؟

المغربى : أنا زائر ياسيدى التاجر . وربما كلمتكَ فى شأن يكون

فيه ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن: مرحباً بالزائر . تعالَ يا سيدى نتحدث على هذا الفضاء الطلق وفى ظل هذا الروض الكريم .

(يسيران قليلا ثم يجلسان)

المغربى : أنا يا سيدى التاجر رجل من أغنياء المغرب ، حبب الله إلىَّ السياحة فى أرضه ، أجوب مذ كنت البر وأرفع شراع البحر ، إلى أن دفعتنى الأسفارُ منذ أيام إلى مدينتكم هذه أشبيلية الغناء وكنت سمعتُ عنها وقرأت الشيء الكثير ، فلما نزلتها ودخلت فى مواضعها وخرجتُ ملأت نفسى وشغلتُ خاطرى ، فاعتزمت أن أجعلها قرارى وملقى عصاى فى رحلة الأيام .

أبو الحسن: ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنها الجديد البار .

المغربى : مهلا يا سيدى التاجر وخذ الحديث إلى آخره ، لم يبق فى نفسى من هوى الأسفار إلا جولة أجولها فيماوراء هذا الأندلس من ممالك الفرنجة وديار ، فإذا كتبَ الله لى

السلامة أتيت هذه المدينة فاتخذتها وطناً وديارا .

التاجر أبو الحسن : مشيعاً بالسلامة والكرامة .

المغربي : ولكنى مزمع سفراً . وما يدرى المسافر ما وراء الغربة من الفجاءات وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ومعى يا سيدى من كريم الجوهر ونادره ما أخشى عليه السرقة أو الضياع وأنا منقطعُ الوارث لا أهل ينتظروننى ولا ولد ، ولقد مررت بدارك هذه مراراً فكنت كلما زدتها تأملا زادتنى بهجة وروعة ، حتى حدثتنى النفسُ بشرائها .

أبو الحسن (فى غضب) : أأنت أيضاً يا سيدى أتيتَ تساومُنى فى الدار !

المغربي : دعنى أستتمُّ يا أبا الحسن فإنى جاد ! ما أنا بالمساوم ولا بالرجل الذى يلتمس الفوائدَ لنفسه من مصائب الناس ، ولكنى جئت أخطب إليك الدارَ وأجعلُ مهرها ما أقدر أنا لا ما تقدر أنت ولا الناس .

أبو الحسن : ماذا تريد يا سـيدى ؟ بين ! صرح ! إنى لا أفهم ما تقول !

الشيخ المغربى (ويخرج عقد لؤلؤ من كمه) : هذا عقد من كبير اللؤلؤ وخالصه قيمته زهاء المائة ألف دينار ، فخذه ياسيدى ثمناً لدارك وابق فيهاواحرسها لى حراسة القيم الرفيق ، فإن لقيتك سالماً بعد ثلاثة شهور تمضى من يومنا هذا نزلت فى دارى ، وإن مضت هذه المدة ولم أعد ، بقيت عليك الدار مباركاً لك فيها ولولدك .

أبو الحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمن كثير جداً لدار يشتغل بها الآن السمسار والدلال .

المغربى : بربك أيها السيد لا تعرض عن خير ساقه الله إليك ، ولا تقف لأهل المروءات فى سبيلهم ، لا تستنكر على رجل قد زاد ماله حتى ما يدرى ما يصنع به أن يعين بفضلة منه كريماً مثلك طالمـا آسى المجروح وأقال عثرات الكرام ، فأجز الصفقة يا سيدى أجزها .

أبو الحسن (ينظر إلى العقد قائلا) : أمائة ألف دينار !

المغربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

(أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه ، وفى هذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ)

أبو الحسن: ماذا أرى ! ما هذا الشرع ؟ مَن الفتية ياترى ! إيذن لى أيها الزائرُ الكريم وانتظرنى فإنى عائد إليك من فورى .

(يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فإذا هو يا ابن حيون . حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه) .

حسون : تعال يا بن حيون ألاعبك الشطرنج .

ابن حيون : لبيك يا سيدى حسون .

(ويدخل ابن حيون إلى حسون عند اقتراب أبى الحسن من القادمين يسارع إليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر)

ابن غصين (بثينة) : السلام عليكم يا عم .

أبو الحسن : وعليكم السلام يا بنى .

ابن غصين: لمن يا عمُّ هذا القصر المنيف وهذه الربوة الغناء ؟

أبو الحسن: هذا الكوخ يا بنى لخادمكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمى غرفة الفردوس كوخاً ! هذا منتهى التواضع يا سيدى التاجر .

أبو الحسن: ومن السيد ؟

ابن غصين : ولدك ابن غصين . من أبناء أعيان قرطبة ، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبو الحسن: مرحباً مرحباً بشباب قرطبة النابه . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يا بنى ، وإنه ليسرُّنى ويشرف قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة مع ولدى حسون ، فإنى أرى عليكم الفضل والأدبَ والجـــادة ، وحسون لا يصاحب ولا يجالس إلا أهل الفضل والنُّبـــل ، فتفضـــلوا أيهـا الأدباء وشرفُوا أخاكم بزورة ، وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتهى النشء المثقف ، ففى خزانته ما قدم وما حدث من آلات

الطرب حتى عود زرياب .

جوهر (يصيح) : عود زرياب !

أبو الحسن: أجل يا بنى ، ذلك العود الذى على أوتاره كان عواد الأندلس يسمع الخلفاء ما توحى إليه الجن من روائعَ الألحان ، وتجدون كذلك عند حسون مكتبة لم يجمع مثلها فى البلاد قدْ حوت الذخائر فى كل علم وفن .

ابن غصين : وكيف ولع فتاك يا سيدى بعلم الفلك ؟

أبو الحسن: أشد الولع يا بنى ، وقد جمع الكثير من نفائس المخطوطات فيه وفى أولها رسائل المنجم الضبى .

ابن غصين : المنجم الضبى ؟

أبو الحسن: أجل يا بنى ، وأذكر أنه من شهرين أو أكثر أو أقل ، قد انتهت إلى حسون رسالة مما وضع الضبى فدخله من ذلك فرح يشبه الجنون .

ابن غصين (لنفسه) : رسالة للضبى من شهرين أو أكثر أو أقل؟

بشراك يا قلب إنه هو ، وبشراك يا عين ستكتحلين
به الساعة (ثم إلى أبي الحسن) : لقـــد شقتنا إلى
ولدك الفاضل أيها السيد فأين من يستأذن لنا عليه ؟

أبو الحسن: يامرحباً ! يا مرحباً ! ما أعظم حظ حسون .
إتبعون يا سادة ، اتبعون ، فإني دليلكم إلى ناديه ،
وإني أرجو أن سيعجبكم ، إن حسون شاب قد ألقى
الله عليه محبة الناس .

(أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام
كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج)

أبو الحسن (لابن غصين) : هو ذا حسون يا سيدى يلعب
الشطرنج مع صديق لنا قديم كريم لا تخلو منه الدار
ساعة ...

(أبو الحسن ينادى ابنه) .

أبو الحسن: حسون يا ولدى .

حسون : لبيك .

أبو الحسن: هذا ابن غصين من نبلاء فتيان قرطبة ومعه صاحباه
ورفيقا سفره يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسون : يا مرحباً ! يا مرحباً ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبو الحسن: لقد جمعتك بضيفانك الكرام يا حسون ، والآن أترككم فى حراسة الله لأعود إلى زائرى المغربى فإنه بانتظارى وأخاف أن يأخذه القلق .

(أبو الحسن يرجع يفتش على المغربى فلا يجده)

أبو الحسن: يا لله ! أين الشيخ ؟ أين ذهب (منادياً) : سعيد .

الخادم : لبيك يا مولاى .

أبو الحسن: ما صنع الله بالشيخ المغربى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟

سعيد : لا أدرى أين ذهب يا مولاى .

أبو الحسن: (ينظر فى يده وكان قد نسى فيها عقد اللؤلؤ) .

أبو الحسن (لنفسه) : ويحى ماذا أرى ! هذا عقد اللؤلؤ فى يدى نسيته فيها يا خجلا ! ماذا يقولُ الرجل عنى؟

ابن حيون (من داخل الكشك) : سيدى أبا الحسن ، لقد لمحت زائرك المغربى خارجاً من الدار يُهرول فعبثاً تبحثُ عنه.

(حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون) .

ابن غصين (لنفسه) : إلهى ، صدقنى القلب ما حدث وقلما تكذب القلوب ، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة (ثم إلى حسون) الآن صـــدقتنى الذاكرة ، فنحن ياسيدى قد تعارفنا قبل اليوم .

حسون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقل أو أكثر .

حسون : لله ما أعظم حظى ! أنت والله يا سيدى ذلك الفتى الملثم الذى نازعته رسالة الضبى ونازعنيها حتى غلبته عليها . نعم أنت هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديت إلى كوخى أيها السيد العـــزيز ! يا مرحباً ! يا مرحباً ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنت يا سيدى تلاعب صاحبك الشطرنج ، وأخشى أن أقطع عليكما لذة اللعب .

حسون : لا ياسيدى ، هذه لذة نجدها فى كل وقت ، وأما لقاؤكم

والأندلس بكم فلذةُ الدهر وخلسة الأيام ، تفضلوا
يا سادة .

ابن غصين (لجوهر همساً) : اجتهد يا جوهر أن تلاعب هذا
الشيخ وتشغله حتى يخلو لى وجه حسون .

ابن غصين : (إلى لؤلؤ) : وأنت يا لؤلؤ إذا أخذا فى اللعب
فقم عند رأسيهما ولا تدعهما حتى أهم بالانصراف .

جوهر (إلى ابن حيون) : أتأذن يا سيدى أن أحل محل السيد
حسون فى ملاعبتك ؟

ابن حيون : تفضل يا سيدى خذ مكان حسون وأرحنى من
قدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظه الذى
هو أعجب من قدرته .

ابن حيون (إلى لؤلؤ) : وأنت يا سيدى أتحب أن تكون من
النظارة ؟

لؤلؤ : يا حبذا لو أذنت يا سيدى .

(يتأبط ابن غصين ذراع حسون ويبتعدان ناحية) .

ابن غصين : أحق أننا التقينا يا حسون ؟

حسون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابن غصين : عناية ولطفٌ وتوفيق أقدار لأقدار .

حسون : وقديماً جمع الله الشتيتين ، وطوى الأرض للبعيدين .

(يجلسان)

ابن غصين: أتذكر يا حسون قرطبة وسوق الكتب ؟

حسون : أجل ، وأذكر رسالة الضبى وكيف كنا نتنافس فيها ، وكيف غلبتك عليها .

ابن غصين (مبتسما) : وأين هى الآن يا أخى ؟

حسون : هى هاهنا يا ابن غصين بالقرب منك وفى متناول يدك إن شئت انتقلنا إلى المكتبة فأخذتها .

ابن غصين : لا يا أخى بل دعها فى موضعها من خزانتك فإنها عندك فى الحفظ والصون وكأنها عندى ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حين لحين كلما جئتُ دارك زائرة ؟

حسون (فى دهش) : زائرة ؟

ابن غصين (لنفسه) : ويح لسانى قد عثر وكشف السرّ القدر ! .

حسون (مبتسما) : كيف تأنثت أخى ؟ ما أنت الفتى الذكر ؟
أما كفاك هذا الصوت الساحر الرنة اللذيذ النبرة حتى
جمعتَ إليه أنوثة اللفظ ولين الكلام ؟

ابن غصين : (فى تلجلج وغضب) : عثرة لسان يا شاب فمر عليها
الكرام .

حسون : وما أثارك يا أخى وليس فيما قلت ما يغضب ؟

ابن غصين : لنطو هذا الحديث ولنرجع لما كنا فيه . . أما يسرك
يا حسون أن أخلق لزيارتك العلل والأسباب ، أن
أجعل رسالة الضبي سلماً إلى دارك كلما اشتقت إليك !

حسون : كلُّ السرور يا بن غصين ، أنا واحد أبى لم أعرف
عاطفة الأخوّة ولم أجد لها حناناً ولا رقة ، ويخيّل
إلىّ منذ عرفتك أن قلبي يفيض منها وأن وجدانى بها
مترع ، فهل ترضانى أخاً لك شقيقاً ، برا بك شفيقاً ؟

ابن غصين (ويتنهد) : يا مرحباً وإن كنت حللت من قلبي محل
أخي الظافر من أول يوم .

حسون : ويح أذنى ما أسمع ! وما أنت من الظافر يابن غصين!
وما الظافر منك ؟

ابن غصين (ويتلجلج فى الجواب) : عثرة أخرى ، ويحَ لسانى
اختلّ عصبه واختلط عضـــله ، اغفر لى هذه أيضاً
وأنسها يا حسون .

(وكان ابن غصين ينظر إلى رباط بذراع
حسون فوثب فى الحـــديث وقال) :

ابن غصين: وقى الله ذراعك بيمينه يا أخى ، ما هذا المنديل ؟
ما وراءه ؟

حسون : جرح اندمل أكثره وبقى أثره .

ابن غصين : بعدَ عنك الشرُّ يا أخى ، من جرحك ؟

حسون : هذا واحد من جراح لم يكن يرجى أن أقوم منها ولم
تلق عليها العناية يدَها الآسية الشافية .

ابن غصين : بالله إلا حدثتنى حديثك . أطلع عليك اللصوص
يا أخى فى مكان خال من الناس فأبليت فيهم وأبلوا
فيك ؟ أفاجأتكَ عصابةُ الباز بن الأشهب فجرحت

رجالها وجرحوك ؟

حسون : لا يا سيدى إن القتال الذى شهدت أعظم شأناً وأنبل أقراناً مما ذهبت إليه ظنونك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حسون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غصين : قبل تلاقينا فى سوق الكتب أو بعده ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيع ، وكنت نزيلا على بعض خانات المدينة ، فكان من عجائب القدر أنّى اكتشفت مؤامرة تدبّر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن قرطبة ، وكان شيطان الفتنة ورأس أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور ؛ فما اطلعت على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى ، فانسللتُ من الخان ليلا وركبتُ جواداً كان معداً ليركبه بوق الثورة والفتنة فعدوتُ حتى أتيت قصر السوسان فنبهت الأمير وحاشيته وحرسه ، ولم أكن إلى تلك الساعة رأيتُ

الظافر وجهاً لوجه ولا حضرت له مجلساً ، وتأهبَ
الجميع للقتال وما لبث الثوار أن طلعوا علينا آتين
منْ نواحي المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز ،
فتلقيناهم بصدور قد رحبتْ بالموت ونفوس قد
هشت إليه ، وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقه وأشبيلية
ومكانها في الأعناق ، فَحملنا حملة تحيد عنها الجبال ،
وكان الظاهر طيب الله ثراه .

ابن غصين (منزعجاً) : حدثني يا سيدي عن الظافر ، قل لي كيف
قاتل ، وكيف قتله الغادرون ؟

حسون : تسألني عن الظافر كيف قاتل ؟ سل حريزاً عنه فهو
ينبئك أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنت من الأمير في ساعة البأس ياسيدي ؟

حسون : كنتُ حوله أحمي ظهره ويشد سيفي سيفه إلى أن
ناءت به جراحاته فسقط عن جواده ، وكنتُ أنا
أيضاً قد أثخنتُ بالجروح ، فسقطت إلى جنبه ، حتى

إذا أفقت من غشيتى نظرت حولى فرأيت عند رأس
الظافر هذا الصديق الذى تراه يلاعبك الشطرنج
الآن .

ابن غصين : وما اسمه ياسيدى ؟

حسون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسون : طبع على جبينه قبلة وبكاه ورحم ، ثم ألقى عليه
رداءه .

(ابن غصين يدخل فى الإغماء)

حسون : ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعينيك
تغمضان ! وما بال رأسك يميل ؟ ويحى ماذا جنيت
على الشاب؟
قد كان عن حديث الظافر لى غنى ؛ رب أصاح أنا
أم حالم ؟

(وعندما يميل ابن غصين فى الإغماءة تقع القلنسوة)

حسون : هذه ضفائر فتاة قد هوت عنها القلنسوة فانسدلت كجنح
الليل على جبين كغرة الصباح . أيها الملك الكريم ،

لقد عبثت بى إذ كنت تتنكر وتترجل فاعبث اليوم
بقلبى ما بدا لك فقد دبّ لك الهوى فيه ، إن شئتَ
فتنكر ، وإن شئت فاظهر ، فلأكتمن حديثك
ولأقدسنّ سر هواك أن يذاع ، ويلاه إن الإغماءة
قد طالت . ابن حيون ... ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حسون : أنا فى حاجة إليك . . تعال وحدك أسرع .

(يحضر ابن حيون)

حسون : ابن حيون . انظر ماذا ترى لقد أغمى على ابن غصين
فإذا الظبى مهاة وإذا البدر يابن حيون شمس .

ابن حيون : (بعد تأمل عميق) : يالغرائب القدر ، هذا الوجه
عرفته وعشقته قبل عشرين عاماً من هذه الأيام وقد
لقيت بعشقه الدواهى .

حسون (مندهشاً) : قبل عشرين عاماً من هذه الأيام ! هازل
أنت يا عم ؟

ابن حيون : بل جاد كل الجد يابن أخى . اسمع حسون هذه بنت
الرميكية . هذه أخت الظافر . هذه بنت ابن عباد .

[ستار]

الفصل الرابع

« باحدى مقاصير قصر الزاهى ـ العبادية » .

« والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبادية : لقد علمتُ يا بثينة ما كان من زيارتك لدار التاجر أبى الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون ، وأنك كنت فى زى الغلام وكان معك لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبرَك الخبر يا جدّة ؟

العبادية : عينٌ من الحب وكلتها بك ترعى خُطاك وتحرسُ حركاتك وسكناتك وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسك الأبية العالية وخُلقك الفاضل الشريف .

بثينة : أنت إذن يا جدّة كالمنصور بن أبى عامر لك فى كل ناد عين ، وفى كل سامر إذن .

العبادية : لا بل أنا عجوزٌ يا بثينة والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرمل ملك وأم ملك يتجسس لى من لم أندبه للتجسس ويجيئنى بالأخبار من لم أزود . ومهما يكن من الأمر يا بثينة فلا تنسى أننا ما أرخينا لك الحبلَ إلا ونحن نعلم أنك الفرسُ النجيبةُ التى إذا أرخىَ لها الرسنُ لم يخشَ لها جماح ولا شُرود .

بثينة : جعلنى الله عند ظنكم يا جدة . وببغاؤك نادرة يا جدة أنسيته ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدى كريماً وكان سيد الطير وكان أخفها ظلا وأبينها حكاية ونقلا .

بثينة : أتذكرين ياجدة كيف أشفقت عليه فلم ترضَى أن ينُزعَ من ريش جناحيه كما يصنع الناس بالطير الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيت بوضع حلقة صغيرة من الذهب فى رجله اليمنى تمنعه من النهوض وتقيـــده وإن كان فى الظاهر حراً يتنقلُ

فى نواحى القصر .

العبادية (مندهشة) : وماذا أخطر ببغاثى نادر على بالك يابثينة وماذا تريدين بذكر الحلقة ؟

بثينة : أريد أن أقول لك يا جدة أن حالى كحال المرحوم نادر . قيدتمونى بجوهر ولؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصاد ثم زعمتم أنى حرة طليقة أفعل ما أشاء .

العبادية (مبتسمة) : ولكن لا أظن حلقة الذهب تثقل رجلك يا بثينة ، فإنى أرى خدم أبيك الملك لا يقصرون فى صحبتك عن خدمة ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمنى . إنما يهمنى أن أعلم رأيك فى الشاب وكيف وجدته . وهل هو على جانب من الفضل والعقل يتميز به عن اللذات ويسمو به على الأتراب ؟

بثينة : أما هذا ياجدة فنعم ، حسون فتى جم العلم غزيرُ الأدب عظيم الحظ من الفنون جميعاً إلى ما وهب له الله من

الشجاعة التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك وإلا
شابٌّ كان زين الشباب ، طاح بالأمس شهيد
الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبداً تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتى
فى أعراس نعيمه بين شباب الجنة ، خبرينى هل فى
شبان أمراء الديار اليوم من هو الكفء لأميرة
الأندلس وعروسه؟

بثينة (فى حياء) : هى الكفء موجوداً حاضراً يا جدة . أهذا
وقتُ الفكر فى زواجى والاهتمام به وأنت ترين
الحوادث يجد جدّها والأمور تسوء مسايرها .
مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلق
البلاء : المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من
البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من
البر ، والملك بينهما كالصيد المطارد من جانبيه ، إن
تلفت عن يمينه قتل ، وإن تلفت عن شماله أكل ،

والأندلس فى هذه الأثناء كالأسد الواقع فى الحفرة إن سكن لم ينفعه ، وإن تحرك لم يرفعه ، وحدة ممزقة ، وكلمة متفرقة ، وآمال بالعدوّ معلقة .

العبادية : إن بنات الملوك إذا بلغن إلى مثل سنك يا بثينة كان الزواج أزكى بسترهن وأليق بجلالهن ، وأما ماذكرت من إظلام الجو وجهامة الحوادث ، فتلك حال اختلفت علينا بها السنون حتى ألفناها وقد تصير إلى الأردإ الأسوء . وقد يبعث الله برياح اللطف فتعصم السفينة من الصخرة وتقيها كارثة الاصطدام . بثينة ! بنيتى أنا الجدة ولدتك مرتين إستريحى إلىّ بسرك ، وبوحى إلىّ بمكنونه فلن تجدى أرحبَ بسرك ولا أرحم لك من هذا الصدر . خبرينى يا بثينة أتعرفين بين أبناء سروات أشبيلية اليوم فتى يتوسم فيه الخير ويرجى فى أمره الصلاح ، ويقول الناس عنه : فلان كفء لبنات الملوك ؟ بثينة . لقد مررت باسم حسون مراً ولم تصفيه لى . فما شكله . . وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدة شابٌ فى أواخر العقد الثالث من عمره ، رشيقُ القامة فى طول ، أسمرُ اللون فاحمُ الشعر جعده ، ساحرُ النظرة ، إذا تبسم جذب ، وإذا تكلم خلب .

العبادية (تبتسم) : هو إذن فتى جميل يا بثينة ؟

بثينة : جداً وخفيف الظل فوق ذلك .

العبادية (بعد إطراق) : ولكن . . .

(فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدة ذلك)

العبادية : لا تغضبى يا بثينة فليس وراء « ولكن » شىء أقوله يحط من شأن حسون وينزل به عن مرتبة الفتيان الأمجاد ، بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلت بالتاجر أبى الحسن فذهبت بمعظم ماله .

بثينة : وما يعيبه من هذا يا جدة ! أليس أبو الحسن تاجراً ! والتجارة جزر ومد ، وحرمان وجد ، ونحس وسعد ، فكم من تاجر بمنزلة أبى الحسن قد نكب فذهب عنه كل شىء إلا الخلق ، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الأعوام حتى سمع الناس وتحدثوا أن التاجر فلاناً المنكوب تغلب

بالخلق على نكبته فعاد دولابُ تجارته كأمس عظيم الحركة عميم البركة ، ومثل أبى الحسن فى خُلقه وأمانته وشرف اسمه فى الأسواق لا يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه فى عافية .

بثينة (صاغية ثم قائلة) : أسمعت يا جدة .

العبادية : أجل ! سمعت تنفساً .

بثينة : ترى من الطارق !

(يدخل عليهما الملك)

الملك : صفحاً يا أم وعذراً يا بثينـــة ، إذا كدرتُ عليكما الخلوة وقطعت عليكما الحديث ؛ فوالله ما دفعنى إليكما الساعة إلا همٌّ سار وشاغل جليل .

العبادية : لا بأس عليك يا بنى ، وعافاك الله أيها الملك ، تفضل اجلس .

بثينة : خذ مكانك بيننا يا أبت واسترح إلينا من همومك ،

فها هنا الرحمه قد بسطت جناحيهـــا : ها هنا الأم والبنت .

(الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكياً)

بثينة (باكية) : هون عليك يا أبتِ وتجملْ أيها الملك فقبلك لم تبسك الآساد ، ولا اشتكت الأطواد ، ولا ضاقَ البحر عن الأعاصير الشداد . تحـــدثْ إلينا يا أبت ولا تيأس من روح الله . وعليك بهـــذه الجدةّ الشفيقةِ والأم البرةّ فائتمنها على سرك .

الملك : الملك ألفونس منذ سقطت طليطلةَ وقضاها الله له أصبحَ لا يعرفُ لى منزلةً ولا يألونى تحقيراً وإهانة ويطلب المالَ باستكلاب وشره والبـــلادَ باستطالة ولؤم ، ومن عجيب أمره أنه يغضبُ من جهة فيصخب ويهـدد ، ويلين من أخرى فيـــلومنى على الاستغاثة بيوسف بن تاشفين واستنجاد جنوده ، ويدعى الطاغية أنه أوفى لى منه عهداً وذمة وأصفى

صداقة ومودة ، وأنني إن حالفت سلطان المغرب
كانت محالفة الذئب للحمل ، وأن بربر المغرب إذا
دخلوا الأندلس طغوا في البلاد وهدموا بنيان
الحضارة فيها ، ومن نكد الدنيا أن تصدق فينا
نبوءة هذا الناصح الغاش فقد طمع ضيفنا ابن تاشفين
في ملكنا وسلطاننا وتطلعت نفسه إلى خيراتنا
وأرزاقنا ، واستنصرناه على ألفونس فإذا نحن الآن
نخشى منه بطش النصير ، وإذا أشبيلية قد تضمنت منى
ومنه العجب ، النمر في قصر هناك وراء الضفة يجتمع
به أعدائي وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين
وصغار العقول من الفقهاء ومن يلتف عليهم ،
وهؤلاء يحسنون له البقاء في الأندلس واغتنام
الفرصة لضمه إلى سلطنته ، ويقيمون عنده الحجج على
فساد ملوك الطوائف ويجعلونني الهدف الأول ،
وهنا في هذا القصر أسد مقلم الأظفار مغلوب على

العرين وحيد من الأنصار والأعوان .

الحاجب : شيخ يدعى ابنَ حيون بالباب يا مولاى .

بثينة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه ، فقد سلفَ للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

الملك : أدخله أيها الحاجب ... (يخرج الحاجب من الباب) خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينة : لقد حدثنى من لا أشك فى صدق روايته أن هذا الرجل صلى على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

(يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع)

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

الملك : وعليكم السلام أيها الولى الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذن لى الملك فى خلوة (وقد رأى السيدتين) .

الملك : لا تخش شيئاً يا ابن حيون فهذه العبادية أمى وهذه بثينة بنتى لحديثك لن يساق إلا إلىّ وسرّك لن يجاوز أذنى .

ابن حيون : أيها الملك نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ،

وفى مثل ما نحن فيه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقد انتهى إلى أذنىَّ من بعض الفقهاء والمختلفين إلى ضيفك هذا يوسفَ بن تاشفين أنه أصبح يرى نفسه أحقَّ بهذا الملك منكَ وقد رأيتُ رأياً فإن إذن الملك رفعتُه إليه .

الملك : وماذا رأيتَ يا أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : إعلم أيها الملك أن هذا الضيف الذى نصرتَه ونصرَك وحالفته وحالفك وقاتلت معه قتالا يبقى حديثَ الدهر وهو أهل لأن يغدركَ وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعاً ووقوعه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديماً كان هذا سلوكه مع غير واحد من أمراء المغرب فنزعَ منهم ملكهم وسلطانهم وشرَّدهم فى الصحارى والقفار ، فلا تفوتنك يا مولاى خُطة الحزم والعزم فى أمر هذا النمر ذى العمامةِ والمسبحة .

الملك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطىء الأرقم سريرك ، وأن تقطع السيف قبل أن يقطعك ، وأن تقبض من فورك على ضيفك هذا فتسجنه ولا تطلقه حتى يأمر جنوده بمغادرة الأندلس برّه وبحره ثم يحرس أسطولك البحر من كل سفينة مغربية تجرى فيه ، فإذا تمّ لك ذلك أخذت على ابن تاشفين الأقسام ألا يعود إلى الأندلس بعدها أبداً . وخذ منه الرهائن فإن نفس الرجل أعزّ عليه من ملك الأندلس والمغرب مجتمعين ، وله أعداء ببلاده يخشى تحركهم وانتقاضهم ويخاف أن ينتهزوا الفرصة للاستيلاء على ملكه .

العبادية : أيها المتكلم المحسن والناصح الصادق لم يخف عليّ مكان مشورتك ولكنها خطة أولها لؤم ، وآخرها شؤم ، فإن الملك أكرم وأعظم من أن يغدر ضيفه أو يخون جاره أو أن يحفر الحفرة لمن أقال عثرته .

الملك (لابن حيون وقد رآه يضطرب) : لا ترع أيها الرجل

الصادق فقد كنا حين نبئنا بوصولك نخوضُ فى هذا الحديث وكان رأيى كرأيك أما ابنتى بثينة فلم تكن أبدت رأيها بعد .

بثينة : مولاى ، كِلا الصوتين نبرةُ حق ، وصيحة صدق ، إلا أننى أميل إلى الأخذ برأى الأديب ابن حيون .

الملك : بورك فيك ياعقيلة الأندلس مثل هذا السمو فى الرأى وهذا الحرص على حقيقة الملك لا يستغربان من بنات الملوك المنشآت بين أعباء الدولة ومهام السلطان .

العبادية (معترضة) : ونحنُ بناتِ الشعب ألا يقام لرأينا وزن يا مولاى .

الملك (مبتسما) : أنتنّ تلدن الأجسام الصحيحة والقلوب الجريئة وتحسن تدبير البيــــوت ولكن لا تصلحن لسياسة الممالك .

الملك (لابن حيون) : لو تيقنتُ يابن حيون أن جمهورَ شبان الأندلس يشاطرونك أنت وبثينة الرأى لما تأخرتُ ساعة عن العمل بما تشيران به علىّ .

(يدخل مقلاص) .

الملك : كيف قضيت ليلتك عند ضيفنا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؟

مقلاص : كانت ليلتي يا مولاى ونحن ، كما تعلم ، فى آذار فى إبان القمر طويلةً مظلمةً باردةً لم أضحك فيها السلطان مرة ولكن بكيتُ مراراً ولم أجلب له السرور ولكن جلبت لنفسى الغم .

الملك (متعجباً) : ما هذا الخبر يا مقلاص ؟

مقلاص : وجدتُ يا مولاى بحضرة أمير المسلمين لا يفهم كلامَ العربِ وعند رأسه ترجمان من كتابه يفسر له كل ما نقوله يا معشر العرب فى مجلسه ويشرح لكل منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

الملك : ثم ماذا ؟

مقلاص : رأيتُ هناك يا مولاى ملوك الأندلس وقوفاً بباب السلطان متنافسين فى إذنه .

الملك (ملتفتـــاً إلى زائره قائلا) : أسمعت يا بن حيون . . . ؟
أعرفت . . . ثم ماذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فقهاء الأندلس بعمائمهم المكبرة وجببهم الموسعة يتمسحون بالأعتاب .

الملك : أسمعتَ يا بن حيون ! أعرفت ؟

الملك : ثم ماذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدت السلطان ؟

مقلاص : بو عليه طيلسان وبُومة فى يدها صولجان .

الملك : وماذا قال لك حين وقعت عينه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ إليـه يا مولاى فحققنى من رأسى لقـدمى ثم قال لى : أأنت الرجل الذى عمله إضحاكُ الملك بن عباد وتلهية أسرته ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلت له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملك وسميره .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذن فأضحكنا نحن أيضاً .. عجل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعت ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد ووقفت ساعة أنظر فى ثيابى ولم يفتح الله علىّ بشىء يضحك منه ضيفك الكريم فهممت بأن أقبض على السلطان بكلتا يدىّ وأقذف به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يامقلاص ؟

مقلاص : سيفه المعروض على حجره والزبانية القائمون عند رأسه وبجانبه كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطان لحظ حرج موقفى فأشار بإخراجى لحضر من رجاله من صرفنى فى وقاحة وإذلال فخرجت وأنا لا أدرى فيم طلبنى الرجل ، وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمة سلطان مثله له وجه كوجه الأسد لا يعرفُ التبسم ولا البشاشة .

(مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره)

مقلاص : لقد وجدت ضالتي يا مولاى .

الملك : وما ضالتك التي وجدت؟ وقد عدت تهذى يامقلاص؟

مقلاص : لا يا مولاى . . ألا تذكر أنى كنت من الإعجاب بجمالِ الأميرة بثينة وكمالها وسمو منزلتها بين عقائل الشرق والغرب بحيث لا أعتقد أن بين فتيان الدنيا من هو أهل لأن يخطبها إليك .

الملك (مبتسما) : والآن هل وجدته يا مقلاص . . . ومن ترى يكون ؟

مقلاص : فتى جرىء جميل رأيته يوم الزلاقة يحمى ظهرك هو وحريز وابنُ لاطون فظل سحابة نهاره معلناً بالسيف دونك حامياً لحوذتك حتى لقى البطلان حريز وابن لاطون حتفيهما وحمل هو إلى داره مُثخناً بالجراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجلُ فتيان الأندلس وأشجعهم وهو الآن طريح الفراش ما يزال يشكو من جِراحه .

الملك : ومن يكون ؟ وما اسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبي الحسن .

ابن حيون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى فإنى كنتُ عند حسون الليلة البارحة أعودُه وقد أفاق من جراحه وقص علىّ حديث بلائه يوم الزلاقة حين اشتدّ القتال بينك وبين الإفرنج فأخبرنى أنه رأى يومئذ جوادك وقد ضعف وخار من شدة الجراح فقدم لك الصاعقة أمير الجياد ، ركبته وكان تحت الباذين الأشهب لص الأندلس نخرّ عنه قتيلا .

الملك (مندهشاً) : أوكان الباذين الأشهب بجانبي يقاتل معى أعداء البلاد !

ابن حيون : نعم يا مولاى ، ويقول حسون إنه أبلى يومئذ بلاءً عظيما .

الملك : يا لله . أيكون اللصوص أوفى للأندلس من امرائه وفقهائه وأبذل للأرواح دون لوائه . . وأين

حسون الآن ؟

ابن حيون : هو كما ذكــرت يا مولاى ما يزال طريحَ الفراش ولكن لا خطر على حياته .

الملك : الآن تذهب أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤال عن أمره وإبلاغه تحيتى وشكرى وما أعدُّ له من جليل المكافأة .

بثينة : وأنا أيضاً أبلغ حسوناً تحيتى وشكرى يا ســيدى ابن حيون وأرجو أن يعلم أن أخت الظافر لم تنسه ساعة وأنها قد جمعت له هذه الأزهار بيـدها فاحملها إليــه وقل له لو كنت الملك لبعثت له بالغار فى الأزهار وبالصولجان مع الريحان .

(وفى هذه الأثناء يدخل جوهر)

جوهر : مولاى لقد وقع ما كنا نحاذر وحل بأشبيلية البلاء .

المعتمد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلب وأن الحليف قد عاد حرباً . هذا ما خفت أن يكون وقد كان .

(يدخل لؤلؤ)

لؤلؤ : أغث أيها الملك المدينة أدركها فقد خلفتها وجنود السلطان يتدفعون فيها كالسهل بعد ما اشتد ضغطهم على باب الفرج وأقاموا ساعة يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منه إلى كل مكان ، فاخرج يا مولاى فقاتل حتى تستنقذ الوطن أو تموت دونه وإلا فالنجاء النجاء .

الملك (مغضباً) : تدعونى يا شابُّ للفرار . هيهاتَ هيهات . الأسد لايهرب ولايخاف الموت . (ملتفتاً إلىجوهر) خبرنى يا جوهر أين كان فتيان أشبيلية وأينهم الآن !

جوهر : قبعَ الفتيان فى البيوت يا مولاى إلى مائة أو ما دون المائة شهدوا معك يوم الزّلاقة وتعلموا منك الكرّ والإقدام واليوم قد لبسوا السلاح وخرجوا يلاقون الموت وهم بانتظارك ليجعلوك اللواء الذى تسيل نفوسهم عليه .

الملك : يا بشراى مائةُ شاب وطنـــوا النفس على الموت ؛

أما والله لو صدقت يا جوهر لكان لى من مائة قلب
مجتمعة مؤتلفة متواصية بالحق وبالموت قوة أرمى
بها فى العباب فيمحى وأقذف على الجبال فتزول .
البدارَ البدارَ يا جوهر امض لوقتك فضعْ بيدك
السرْجَ على الصاعقة والقنى به على الباب .

جوهر (بصوت عال) : أبشرى أشبيلية هذا البيت قد تحرك
لنصرة العرين .

الملك : فى ذمة الله وفى حفظه يا بنات المعتمد .

بثينة : فى درع من وقاية الله يا أبى ، فإنى أراك أخذت
سيفك ونسيت درعك .

(المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول فى يده ولا درع عليه) .

الملك : إن يسلب القومُ العدا ملْكى وتسلمنى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعه لم تسلم القلبَ الضلوع
قد رمتُ يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع

وبرزت ليس سوى القميـ ص على الحشاشة دفوع
ما سرتُ قط إلى القتـا ل وكان من أملي الرجوع
شيمُ الألى أنا منهـم والأصل تتبعهُ الفروع

(ستار)

الفصل الخامس

المنظر الاول

« فى دار أبى الحسن فى غرفة حسون ، حسون راقد »
« على سريره مريضاً وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبو الحسن: قم يا حسون ، انهض . إن العناية بلغتك مناك ،
وشفت بعودك للحياة أباك .

(ينتفض حسون من رقدته جالساً)

أوشكُ يا بنى أن أهتدى لموضع بثينة فهل تساعدُنى
وهل تخف معى لعلنا نجد الكنز الضائعَ ، ونظفرُ
بالأمنية المنشودة .

حسون : ماذا حدثَ يا أبي ؟ ماذا رأيتَ أو سمعتَ حتى امتلأت تفاؤلا واستبشارا ؟

أبو الحسن: أتذكر يا بني خاتمَ الزُّمرد الذى كانت تطوف علينا به فى سوق الجوهر سيدة كهلة من وصائف القصر وهى تبحث عن توأم للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسون : نعم يا أبي ! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتَم للأميرة بثينة وتصفُ رغبـــة الأميرة فى الحصول على فص يكون فى حجمه وصفاء لونه وسلامته من العيب ليكون لها من الجوهرتين قرط عزيز المثال .

أبو الحسن: فاعلم إذن يا بنيّ أننى كنت منذ حين فى سوق الجوهر فما راعنى إلا رجل قويّ من قواد المغـاربة قد جعل يطوف على التجار يعرض عليهم حلية فأخذتها عينى فإذا هى خاتَم الأميرة بفصه . فتريثتُ إلى أن كف المساومون وكان آخر ثمن بذل فى الخاتم ثلاث مائة

دينار وكان التجار يقولون للرجل لو جئتنا بصنو هذا الحجر لنقدناك فيهما الألف أو زدنا . وهنا أومأت إلى الرجل أن يتبعنى فتبعنى ، فانتبذت به ناحية وقلت له : أنا آخذ الخاتم بالثلاث مئة وأزيدك عليها مئة إن أنت صدقتنى الخبر عن مصدره وكيف وصل إليك ومن أى المعادن التقطته؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلية يا سيدى لجارية من قصر ابن عباد وقعت لى سبية يوم هجومنا على أشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجد عليها غير هذه الحلية وكانت فى يدها فأخذتها ، وأما الجارية فلم أجدها مغنما بل مغرماً فإنها سقيمة مستسلمة للأحزان ، طعامها قليل ، ونومها غرار ، ودمعها لا يرقأ حزناً على سادتها . ونحن لا نحب من النساء إلا القويات الصحيحات الأبدان ، ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمر الجارية تعب وبودى لو تخلصت منها. فقلت له : خذ الآن الأربع مئة ديناراً مباركاً لك

فيها . واعلم أنى طبيب مولع بالمشاهدة والتجريب
كثير الاعتناء بالمريض البائس ، فلو مضيت بى
إلى بيتك لعلنى أنظر الجارية فأعرف علتها وأصف
لها دواءها أو أخفف آلامها . فقمنا فمضينا حتى
انتهينا إلى داره ، وهناك أدخلنى على الجارية المريضة
فدنوت منها وقلت لها : عوفيت يا جارية ولا خوف
عليك إن شاء الله تعالى .

حسون : والذوتة يا أبت ؟

أبو الحسن: رأيتها يا حسون فوجدتها فوق ما كنت تصف لى
لطفاً وجمالا . والتفت إلى القائد البربرى فقلت له :
أو تعطينى هذه الصبية أيضاً وأنا أتمها لك خمس مائة
فتهلل الرجل وارتاح وقال : خذها ياسيدى وأرحنى
منها وداوها أنت فعساها تصح على يديك فنقدته
المائة الخامسة وحملت الصبية فوق ذراعى وخرجت

بها فركبت جوادى وأركبتها خلفى وانطلقتُ حتى
بلغت الدار .

حسون (صائحاً) : وأين هى يا أبت ؟ أتراها هى بنونتها ربى
اجملها هى . . وأين تركتها يا أبى ؟ وفى أى موضع
من الدار ؟

(يفتح باب غرفة مجاورة فإذا بثينة من وراء
الباب فيندفع إليها حسون صائحاً . . . . .)

حسون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بثينة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبو الحسن: (قاطعاً عليهما لذة اللقاء والحديث) : الآن وقد
جمعتكِ يا أميرة بصديقكِ وخادمك حسون ،
أستأذن فى الخروج إلى بعض شأنى ساعة .

بثينة : لا يا عم ، بل إبق ، إلبث ، إن وجودك معنا يزيد
الموقف بهجة وطيباً .

أبو الحسن: إن أذنت يا أميرة فإن احتجابى عنكما لن يطول .

حسون : بل إبق معنا يا أبى .

أبو الحسن: سأعود يا بنى ، سأرجع (ويخرج أبو الحسن) .

حسون (إلى بثينة) : ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيف أقول فى هذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينة : أنظر حسون كيف جعل الله هذا اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان عوضاً لما فاتنا من نعيم الحياة ومتاعها ، حتى كدت أنسى ذلك الملك المنزوع والسلطان الذاهب وأسلو القصور وضجتها والدولة وأعراسها .

حسون : وأنا أيضاً يا بثينة غفرت هفوات الدهر لهذه الساعة المحسنة الطيبة ، وإن لم أخل ولن أخلو ما عشت من تفجع للوطن العزيز وتوجع لرزئه الجليل .

بثينة (متنهدة بعد انبساط) : آه من الدهر ماذا صنع . لطف الله بك يا أشبيلية فيما حل عليك من قضـــائه ، وجعل وطأة المغاربة خفيفة عليك وعلى جاراتك من حواضر الأندلس .

حسون (مطرقاً متنهداً) : دهر ببنيه يا بثينة قلب ودنيا ترتجل العجائب وملك فى السماء يفعل بعباده على الأرض

ما يشاء ، ولكن . . بثينة حبيبتى ، أميرتى ! أحقٌّ
أننا التقينا فى يقظة أم نحن خيالان فى رؤيا من
الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينة يوم السوق ؟ أتذكرين
قرطبة ؟ أتذكرين رسالة الضبى ، لله ما كان
أحلاك يومئذٍ وراء اللثام .

بثينة : وأنت يا حسون ، لله ما كان أجملك وأكملك ،
وكأنك يومئذ ملك كنت تنتقل فى السوق فتخرج
من مكتبة وتدخل غيرها وتدع كتاباً وتأخذ كتاباً
والكتب حلية الشباب النابه وجمال الفتوة النابغة .

حسون : أتذكرين كل ذلك يا بثينة ؟

بثينة : أجل ! كل ما كان من حركاتك وسكناتك يومئذ ،
ومن عباراتك وإشاراتك ما يزال مرتسما فى ذهنى
لم تمحه الشهور ولا أحسب الموت يمحوه .

حسون (يمد يده إلى ذقنها ويقول) : بحياتى نونة كالدرة
المكنونة .

بثينة (فى شىء من الغضب) : نح يدك يا ابن أبى الحسن لا تمدها

إلى مالم تملك بعد .

حسون (فى انكسار واستحياء) : اغفريهـا للحب والشوق يا أميرة . شَلّتْ يدى إن كنت أضمرت سوءاً أو هممت بريبة .

(يدخل أبو الحسن)

حسون : أبى ! أبى ! لم تبطىء يا أبى .

أبو الحسن: كنت مشغولا يا بنى بتهيئة طعام الأميرة .

بثينة : جزاك الله خيراً يا عم ومد لنا عمرك .

أبو الحسن: (يأخذ مجلسه ويقول) : الحمد لله يا ولدى على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار ، فاليوم جمعكما هذا البيت على أثر الكارثة وفى أعقاب النكبة كما يجمع الشاطىء الغريقين سالمين بالرمق من انكسار الفلك ومن ثورة الريح وطغيان الماء ، لقد تعارفتما بالأمس فنشأت بينكما الألفة وأنست الروح الروح ، وانعطف القلب على القلب وقديماً يا أميرة صاهرت

الملوك والرعية ، وأبوك لطف الله به وبنا جميعاً فيما
حل علينا من قضائه وقدره ، أسمح من سن هذه السنة
فرفع على عرش أشبيلية امرأة من رعاياه هى الرميكية
خيرة الملكات ، وأم العقائل من البنين والبنات .

بثينة : أراك يا عم قد بالغت فى مؤاساتى حتى أنكرت يد
الدهر وما نالت منا ، وإلا فأين أبى منى اليوم ؟
وأين من أبى ملكه ؟ وهل نحن اليوم إلا سوقة
تتنصف .

أبو الحسن: هوِّنى عليك يا أميرة إن أباك لم يخلعه قومه ، ولكن
خلعه المغيرون ، فهو فى نفوسنا معشر الأشبيليين
حاضر الجلالة ماثل المهابة مرتسم الكرامة ، يومه
كأمسه وغده كيومه ، وإن اختلف به اليوم والغد
وتصرفت به الأيام وأنت أيتها الأميرة فما زلت بنت
الملك المعتمد بن عباد فهل تنزلين إلى القبول بابنى
هذا حسون زوجاً .

حسون : وخادماً أميناً .

بثينة : هذا كثير من المجاملة والمواساة يا عمُّ ، إن حسوناً كفء ويشهد الله أنى أحبه وأجله ، وكأنى بأبى فى غيابة سجنه ينظر إليه كما أنظره ، ويشعر نحوه بمثل ما أشعر ، ولكننى كما علمت ، مفجوعة ، بأب منكوب ، ملكٍ معزول ، أخذ فغلّ ، ثم سربل الذُّل ، وبأم ثكلى وإخوة قتلى ، وأخوات أميراتٍ يتعذبن من الخلع ويتكسبن من غزل أيديهن .

حسون : قد قلت حقاً يا أميرة وأنا لا أتخيل الجميع هناك إلا مشغولين بك فوق منفاهم ، يفتشون عن مكانك بعين حيرها الدمع ، ويد قصرها العجز ، وقدم أعجزها القيد.

بثينة : إذن فأنت ترى أنه ليس من الحق ولا من البر أن أوجد ولا يعلمون أنى وجدتُ ، وأن أتزوج ولا يعلمون كيف وبمن تزوجت ، وماذا يقولون إذا هم علموا أنى اتخذت من مأتمهم عرساً ؟

ابن حيون (يدخل ويقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشاً) : سيدتى بثينة هنا ؟ الأميرة بخير ؟ ما أعظم منتك يا رب !

(ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه)

بثينة : لا تفعل يا عم أهلا بك يا بن حيون . وما أعظم سرورى بلقائك .

أبو الحسن: أنظر ابن حيون نعمة الله علينا بهذا الكنز الغالى الثمين .

حسون : أنظر ابن حيون كيف رد الله علىّ راحتى وروحى ، وأعاد لى الحياة والآمال .

ابن حيون: الحمد لله الذى جعلكِ فى حفظه وفى ذمته ، والذى ردك إلينا سالمة يا سيدتى ؛ والذى هو قادر على أن يجمعك بأهلكِ كأمس على جاه الأمور وفى ظل شاهقة القصور .

بثينة : لقد رأينا يا عم كيف تنتقل الأمور ، وعرفنا كيف تبدل أهلها القصور ، وأصبحت لا أطمع من دهرى إلا بالعيش فى ظل الأمن والخمول ، وبين قلب يحنو ونفس تعطف .

ابن حيون: طيبى إذن يا سيدتى نفساً ، إن الذى تشتهين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما فى جناح من هذه الدار ، أو فى جنة بعيدة عن الناس من جنات هذا الإقليم ، وإنى أشهد أن هذا الفتى يحبك وأنك ملء قلبه وملء نفسه فاقرنى يا سيدتى حياتك بحياته تجدى حقيقة السعادة فى ظل الحب المشترك الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا يا عم قبل حضورك ولكن لم نكن فرغنا منـــه بعد ، وقد رأت الأميرة براً بوالديها وقضاء لحقهما أن يكون زواجنا بعين أبيها وسمعه ، وبقبول أمها ورضاها ، وكل زواج رضيه الأبوان وارتاحا إليه سبقت فيه البركة وطافت به الرحمة .

ابن حيون: لقد رأيتم صواباً واتفقتم على واجب كان لابد من قضائه ، ولا أظن هـــذا المقترح لقى منك اعتراضاً يا أبا الحسن .

أبو الحسن: معاذ الله يا بن حيون ، ولكن ألا ترى معى أن حسوناً والأميرة محتاجان إلى الراحة واسترداد العافية .

ابن حيون: أما هذا فنعم ، ولم لا يقضى حسون والأميرة هذا الأسبوع فى هذه الدار حتى تثوب إليهما القوة والعافية .

حسون (مقاطعاً) : أتأذن لى ياأبى إن رأيت غير رأيك ورأى ابن حيون ؟

أبو الحسن: تكلم يا بنى فأنت حر .

ابن حيون: الكلام حر فى الأندلس يا حسون فتكلم .

حسون : أرى يا أبى أن نسافر من ليلتنا بل من ساعتنا إلى أغمات منفى الملك .

أبو الحسن: نسافر ؟ نسافر الساعة ؟ وأنت والأميرة على هذه الحال من الضعف والسقام .

حسون : أبى ، إنى ذكرت الوالدين المنكوبين فخيل إلىّ أنهما على جمر لا يهدأ من اللوعة لاحتجاب الأميرة والشك المعذب فى مصيرها ، وليس ماذكرتما أنت وابن حيون

من ضعفى وضعف الأميرة وأثرْ السقم والهم فينا إلا حالا لا يلبث الشباب أن يتغلب عليه ، فالمروءة تأمرنا جميعاً ألا نؤخر الرحيل ساعة ، إذ لا معنى للإسعاف إذا هو لم يعجل ولم يأت فى أوانه .

ابن حيون: هو ذاك .

أبو الحسن: نعم الرأى .

الأميرة : ليكن كما أشار حسون .

حسون : إذن فهلم أبى ، هلم ابن حيون ، هلمى يا أميرة ، الساعة نسافر فنقضى الواجب .

الأميرة : ويقضى الله ما يشاء .

(يدخل الغلمان الخدم صائحين)

الغلمان : سيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون ، خذوا حذركم ، أدركوا الدار .

حسون : ما يزعجكم أيها الغلمان ، وماذا حول الدار ؟ إنى أسمع

ضجة ، أما تسمع يا ابن حيون ، أما تسمع ضجة يا أبى؟

بثينة : حول الدار ضجة .

خادم من الغلمان : أولئك جنود المغاربة يا سيدى .

الثلاثة (بصوت واحد) : جنود المغاربة حول الدار ؟!

الخادم : أجل ، أتوا يسألوننا عن بنت الملك هل رأيناها وهل آويناها ، وهم يقولون إنها دخلت الدار منذ ساعة ، وإنها طريدة الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حسون (مغضباً) : بل قل جيش الفضح يا غلام ، فقد باء الغادرون بفضيحة الأبد .

بثينة : الآن فهمت يا حسون ، الآن أدركت يا عم أن سيرى ابن أبى بكر كان قد خطبنى إلى أبى ، وكان رسوله يومئذ القاضى ابن أدهم ، فلا أبى أجاب ، ولا أنا قبلت ، ولعله تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنوة .

حسون : لا والله يا بنت الملك لا تسقط من رأسك شعرة وأنا

حى ساعدى معى وسيفى بيدى مسلول .

(وبعد إطراق يستأنف ويقول) .

حسون : لا بأس عليك يا أميرة ، ولا علينا يا أبى من طلعة البربر ، ولا من اجتماعهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدار ، ولا خوف علينا من فتشهم ونبشهم .

التاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعتزمت أن تصنع لتدفع عنا هذا البلاء ؟

حسون (بعد فكرة طويلة) : اسمع يا أبى! فى هذه الغرفة صندوق مملوء من ثياب المغاربة وأسلحتهم ، فأتبعونى ، ادخلوا من فوركم فاخلعوا ثيابكم هذه وخذوا من الصندوق ما شئتم من ثياب المغاربة وتزيوا بزى القوم ثم نخرج فنختلط بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حيون : هو لا شك سبيل الفرار .

حسون (مبتسما) : هو ذاك يا ابن حيون ، السرعة السرعة .

(ثم ملتفتاً إلى الأميرة)

ادخلى يا أمـــيرة ، أسرعى ، أسرعى ، ليضيعن الوقت ، فإن الجنود فى طلبنا .

(يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى المغربى ويكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون)

الجنود (داخل المنزل لبعضهم) : فتشوا ، انبشوا .

الأربعة (خارجين قائلين) : فتشوا . انبشوا .

(ويكررون ذلك ثم ينسلون من المكان)

المنظر الثانى

« تحت أسوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون »
« وأبو الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن »

ابن حيون : هانحن أولاء شارفنا أغمات ، وهذه أيها الرفاق هى القلعة التى شاءت الأقدار أن يسجن فيها الملك العظيم .

حسون : يا لعجائب القدر ! قرية ظلت القرون الطوال مجهولة مغمورة أصبحت اليوم تسافر إليها الظنونُ من كل مكان ، وتشتغلُ ممالك العرب بها وبنزيلها العظيم ، وتشرف الأسماع لطالع قوافيه ، وينتظر الرواة ما يقول فيه الشعراء من كلمات التوجع ونفثات الحنين !

بثينة : (بعد إطراق واستعبار) : يا لقسوة القدر ! أهذا قفص الأسد يا ابن حيون ؟ أههنا منفى الملائك من عقائل بنى عباد ؟ تبـاً لك يا ابن تاشفين ، ما كان أبخل جاهك على

الكرام وما كان أكثرك فى القيود على الأحرار !

ابن حيون : صه أيتها الأميرة ، فهذا السجان ينظر إلينا وقد يدخل الريبة فى نفسه أن يسمع منك مثل هذا الكلام .

حسون : كفكفى الدمع يا بثينة وأقلى الجزع ، ولا تنسى أن وراء هذه الجدران جروحاً من الدهر لم يبق لها بلسم سواك ، فكونى المفاجأة الشافية ، واطلعى عليها بابتسامك الحلو طلوع العافية .

السجان : من الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرم السجن موضع وقوف وهمس ؟

حسون : نحن أيها السجان طائفة من آل الملك السجين وحاشيته ، قد هزنا الشوق إلى زيارته والسؤال عن أمره ، فادخل فاستأذن لنا عليه .

السجان : أنسيت أيها الفتى أن هذه القلعة هى من السجون التى يعيرها السلطان اهتمامه . فلا يدخلها داخل إلا بإذنه ولا يخرج منها خارج إلا بإذنه ، فهل بأيديكم جواز

يبيح لكم زيارة السجين ؟

ابن حيون : أنت تعلم يا أخى أن مولانا السلطان يعطف على أسيره الكريم .

السجان (متهكما) : كل العطف يا سيدى .

ابن حيون : وأنت تعلم أن الملك المعتمد قد رُخص له من أول يوم فى استصحاب من يشاء من خواصه وذوى قرباه .

السجان : أعلم هذا أيها السيد .

ابن حيون : فكر إذن فى الأمر قليلا ، فليس يضرك أن تدخلنا إلى الملك وتتركنا عنده ساعة لعلنا نشفى برؤيته وحديثه الشوق والصبابة (ويلقى للحارس صرة ويقول) ومع ذلك فإليك هذه الصرة خذها وبلغنا الأرب .

السجان (وهو يضع الصرة فى كمه) : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا قد لمسته بيدك ، هذا قد سمعت رنينه بأذنك ، هذا

يا أخى هو الذهب مفتاحُ الأبواب كلها إلا باب الجنة.

السجان : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليل يا أخى ، ولك مثله عند خروجنا من حضرة الملك .

السجان : لقد سألتمونى أمراً صعباً أيها السيد ... ومع ذلك ... فما فى دخولكم من بأس . تفضلوا يا سادة ادخلوا .

المنظر الثالث

« فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
« وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة وجوه الجميع ، واليوم »
« يوم عيد ، وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع »

ابن عباد (مناجياً نفسه) :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا
فساءك العيدُ فى « أغمات » مأسورا
ترى بنــاتك فى الأطمارِ جائعةً
يَغزلنَ للناس ، ما يملكنَ قِطميرا
برزن نحوك للتســليم خاشعةً
أبصارهنّ حسيرات مكاسـير
يطأن فى الطين والأقـدامُ حافيـة
كأنها لم تطـأ مِسـكا وكافورا

من عاش بعدك فى ملك يسر به
فإنما عاش بالأحلام مغرورا

الرميكية (للملك) : الأميراتُ بين يديك أيها الملك أتين يهنئنك بالعيد .

الملك : يا مرحباً بهن ، ولا مرحباً بالعيد ولا أهلا به . . .
عيد ! بأيةِ حال عدت يا عيد ؟ إذهب فأنت على السجين حرام .

الملك (لنفسه): لكن يابنَ عباد ! بعض هذا الجزع ، وتجلد رحمة بهذه الحمائم الموثقة ، ورفقاً بهذه الملائكة المسجونة .

الملك (إلى بناته): العيد ياأخواتِ بثينة يوم يجمعنا بأختكن .

إحدى الأميرات : والعيدُ أيضاً أيها الملك يوم يرد الله عليك ملكك فتدخل أشبيلية عليك التاجُ مؤتلقاً .

اميرة أخرى : بل العيدُ يا أبي يوم تدخل الأندلسَ فتتنقل فى ربوعه وعالكه تنقل الشمس من دار إلى دار .

الملك : تقبل الله منكن يا عباديات ورحمنى .

إحدى الأميرات : هوّن عليك يا أبى فلم يدم فى النعيم والبؤس قوم .

الملك : لقد هون الصبرُ الحوادث عندى يا بنتاه إلا حادثة أصبح القلب جريحاً لا يقوى على حملها .

الأميرة : وما تلك يا أبتى ؟

الملك : أختك بثينة واحتجابها الذى طـــال . وانقطاع الأخبار عن مصيرها .

الرميكية : لاتيأس من رحمة الله أيها الملك وانتظر فرجاً يأتى به فضله وكرمه ، فهذا قلبى يحدثنى ، وقلما كذبت قلوب الأمهات ، أن بثينة قد وجدت ، وأنها بخير وأمان .

الملك (باكياً متضرعاً) : اللهم اسمع من أمتك الرميكية وتقبل منها وأدخل علينا السرور ولو ساعة فإن عهدنا به عهد طويل .

(الأميرات يتنصتن)

الرميكية . ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخرى : نقل أقدام !

الملك : انظرى يارميكية من الداخلون ! فإن عينى أصبحت لا تحقق الأشباح .

الرميكية : سلم الله عينيك يا مولاى وأقرهما بلقاء بثينة .

(وفى هذه الأثناء يثب مقلاص إلى الباب ويرجع مع القادمين يقبل ثوب الأميرة بحرارة قائلا ...)

مقلاص : سيدتى بثينة ! أميرتى ، يا طرباً ، يا فرحاً !

الملك : رب ما أرحمك ! ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ ما هذا الطيب الذكى ؟ إنى أجد ريح بثينة !

الرميكية : بشراك يا قلب هذه فلذتك ردت إليك (وملتفتة إلى الملك) سيدى ، مليكى ، انظر كيف استجاب الله لنا ، هذه بثينة مقبلة .

الملك : أجل أيتها المليكة ، أقبلت الدنيا وعاد الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أختى ! ما أعظم إحسانك يا رب !

الملك : بنيتى ، بنيتى ، تعالى املئى ذراعى كما كنت تختبئين فيهما طفلة صغيرة .

(تنطرح بثينة على صدر والدها) .

بثينة : أبي ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملك العرب .

الملك : ولا عليك ياابنتى ، ثق بالله وأملى وجهه الكريم .

بثينة : الصبر منك تعلمناه يا ملك الصابرين .

الملك : والجدة يا بثينة أنسيتها ؟ أما بك إليها شوق ؟ أمالها منك قبلة ؟

بثينه (وتقوم لجدتها) : جدّتى ، سيدتى ، ملكتى ، شهد الله ماخلا القلب منك ساعةً ، وما وجدتُ فى مضيق فذكرتك إلا انقلب فضاء ، ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء وردنى إلى أسرتى ورد أسرتى إلىّ إلا ببركة رضاك أطال الله عمرك يا جدّة .

(ثم ترتمى فى أحضان العبادية جدتها ، وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن ويقبلنهـــا حتى اطردت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال) :

الملك : خبريني كيف اختطفت يا بثينة وما حديث اختفائك ؟
حدّثينيه ليطمئن قلبي ، فقد كان احتجابك فى غليان
الفتنة ، وعند احتدام الفتن يُذال المصونُ ويهون
العزيز وتقع الفجاءات .

بثينة : ولكن الله سلم يا أكرم الآباء .

الملك : حدثينا إذن حديثك يا بثينة .

بثينة : حديثى يا أبت عجيبٌ محزن سار ، مبك مضحك ،
حافل بعجائب القدر ومدهشات القضاء .

الأميرات : حدثينا إياه أختُ أسرعى .

الرميكية : قصى علينا يا بنتاه قصتك .

الملك : خبريني يا بثينة .

بثينة : نظرت إليك يا أبي يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية
فرأيتك تقاتل وحيداً قليل العون والمساعد ، وكأن
أشبيلية تحتك العرين ، وكأنك الأسد يحمى عرينه
شبراً شبرا ، فقلت فى نفسى : علام تعلمت الضرب

بالسيف ، وعلام كنت أركض جيادَ الخيل فى
سهول الأندلس وحزونه ، إذا أنا لم أقض حقّ
وطنى ، ولم أحم ظهرَ أبى فى هذا اليوم العصيب ؟ ثُمّ
جعلتُ على وجهى لثاماً وتقلدت سيفاً وامطيت
جواداً وخرجت من القصر فلحقت بك ، فلم أزلْ
أقاتل بجانبك وأحامى عنْك حتى امتدت إلىّ يد من
حديد فاقتلعتنى من سرجى فأغمى علىّ ، ثم انتبهت
فإذا أنا فى دار رجل من قواد المغرب .

الملك (مغضباً) : وماذا لقيت من المغربى الخشِن ؟

بثينة : لم ألق إلا خيراً يا أبى ، فقد كان الرجل ديناً وتقياً ،
أخذَ ما على من الحلى .

الملك : ياله من ديّن تقى .

بثينة : . . وتركنى ، فلبثت فى داره أياماً طريحة الفراش
لا أذوق طعاماً ولا أطعم رقاداً ؟ إلا ما كان من
سكرات الحمى ، إلى أن سخرت لى العناية هذا الشيخ
الجليل (وتشير إلى أبى الحسن) فلم أدر كيف نقلت

إلى داره ، وهى لا تقلُّ رفعة عن قديم دورنا
ولا تقصر بشاشة نعمة عن زائل قصورنا .

الملك (فى قلق وغضب ، مشيراً إلى حسون) : وهذا الشابُّ من يكون يا بثينة ؟

بثينة : هذا حسون ابن هذا الشيخ الجليل التاجر أبى الحسن ، وله عندنا أياد يذكرُها مثلك فى الكرام ، فقد قاتل الثوارَ فى قرطبة مع أخى الظافر رحمة الله عليه ، وأبلى فى وقعة الزلاقة بلاءً كان له خطره وأثره فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون (متدخلا فى الحديث) : وقد جُرح حسون يومئذ جرحاً بليغاً لحمل إلى داره ، فما بلغها حتى بعث إليك أيها الملك بالصاعقة ، ذلك الجوادُ الأشقر ، فركبته والوطيسُ حام والحرب مجنونة ، فكان ميمون الناصية ، من صوته نصرت ، وفى ركابه غلبت وظهرت .

الملك (مفكراً مهتماً) : الصاعقة ؟ فرس الباز بن الأشهب لصِّ الأندلس ؟

ابن حيون : أجل أيها الملك ، وقد كان تحتك فى وقعة الدهر بين
الفرنجة والمسلمين ، وكان رابع فرس قدم لك يومئذ
وأنت كلما هلك تحتك فرس ركبت غيره .

العبادية : أعرفتَ محدثكَ هذا يا مولاى ؟

الملك : كيف أجهله أو أنساه ، هذا ابن حيون الذى زارنا
فى أشبيلية ونصح لنا فلم نسمع منه ، فالحمد لله الذى
جمعنا به حتى نستأنف شكر إحسانه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاى وأعانك على هذه الشدة
وردك إلى ديارك ورد ديارك إليك .

الملك : وأنتَ يا حسون ، فقد ذكر لى بلاؤك ووصفتَ
عندى كثيراً بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتك يا مولاى وظلك برعايته وأمانه .

بثينة : إيذن لى يا أبى أن أعترف فى مجلسك بأنى كنت فى
بعض أيام تنكرى أجتمع بهذا الشاب النبيل فلا أجد

إلا أدباً حسناً ، وعلماً جماً ، وخلقاً فاضلا ، وشمائل قد لا توجد فى أبناء الملوك .

الملك : أتذكرين يا بثينة كيف كنتُ معك ضد القاضى ابن أدهم حين جاء يخطبك للأمير سيرى ابن أبى بكر ؟

بثينة : أذكر ذلك يا أبى ولا أنسى لك فضلك ما حييت .

الملك : اعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن ، وأن الإسلام لا دير فيه ولا رهبانية ، وأن السجن قد يحتمله الطفل وقد يطيقه الكهل ، ولكنه يرهق الشباب ويزهقه ، فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخشن وهذه العيشة الجافية ، وإن قلبى ليحدثنى بأن ألفة روحية قد انعقدت بينك وبين هذا الشاب النبيل .

حسون (متدخلا) : أيأذن لى الملك إن عرضت أن قوله الكريم إنما يُعرب عما أكن لسيدتى الأميرة من الحب والإجلال ، وإنى أجد أقصى التشريف وغاية السعادة

أن يأذن لى الملك فى أن أخطب سيدتى بثينة إليه .

الملك (ملتفتاً إلى بثينة) : وأنت ماذا تقولين يا بثينة ؟

(الأميرة تغضى حياء وتسكت)

الملك : منَ الصمت كلام .

الملك (إلى أبى الحسن) : وأنت يا أبا الحسن ماذا ترى ؟

أبو الحسن : ما يرى الملك أفضل ، فبما شئت فرنا يا مولاى .

الملك (إلى الرميكية) : والملكة ما رأيها ؟

الملكة : قد أمرتَ يا مولاى بما فيه الخيرُ ، جعله الله زواجاً مقروناً بالسعادة واليمن .

ابن حيون : أيأذنُ الملك لى أنا الآخر بالكلام ؟

الملك : تكلم يا ابن حيون . فقد عرفت مودتك وإخلاصك ، وتبينت نُصحك واهتمامك ، ولو لم يكن من إحسانك إلىّ وإلى أسرتى إلا تجشم هذه الرحلة من أشبيلية إلى أغمات لكفنى فى باب المروءة والوفاء .

ابن حيون : لا شكر على واجب يا مولاى ، وقد طوقتنى الساعة منة لا ينزعها من عُنق الموتُ بما رسمتَ من بناء هذا الفتى الماجد الباسل بهذه الأميرة التى لم يلد الملوكُ أجمل ولا أكمل منها ؛ والآن بقى لى ملتمس أرجو أن يجيبنى الملك إليه .

الملك : اقترح يا ابن حيون تجد ملبياً مجيباً فيما تبلغه قدرة ملك مخلوع .

(يخرج ابن حيون جراباً كان قد شده على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللآلىء واليواقيت)

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلىء ! يواقيت !

مقلاص : يا لك من كنز ثمين غال .

الملك (وهو ينحنى على الكنز) : ومن أين لك يا بن حيون كلُّ هذا المال ؟ فمثل هذا الكنز لا يكون إلا ذخيرة ملك وابن ملوك .

ابن حيون : هو كما تقول يامولاى . فهذا الكنز كان لملك ووارث

ملوك فساقته العناية إلىّ ، واليوم قد هلك أصحـــابه
وبادوا فأصبح لى وحدى أتصرف به كيف أشاء ،
وبالأمس قومت هذه الجواهر بما يقرب من ألف
ألف دينار ، وأنا مقسم هذا المال ثلاثة أقسام :
ثلثٌ تأخذه أنت يا مولاى فتستعين به على ما أنت
فيه من الشدّة ، وثلث يأخذه حسون وزوجته
فيعيشان به رغداً ، والثلث الثالث يكون لى ولأبى
الحسن التاجر هذا (مشيراً إلى أبى الحسن) نؤسسُ
به تجارتنا ونعقد بيننا شركة نتحدى بهـــا تجارات
الفرنجة فى الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبر أنت والله هو المغربى الذى دخل على
داری ، وما كنت يومئذ إلا متنكراً محسناً للتنكر ،
فأسوت جرحى وحفظت علىّ دارى واستنقذتنى من
عوادى البؤس والفاقة ، والآن تردُّ علىّ تجارتى
وتشاطرنى كرائم مالك ، فبأى لسان أؤدى شكر
إحسانك .

ابن حيون : بل اشكر الله يا أخى ، فإنى لم أعنك بمالى ولكن أعنتك بماله ولا أجدنى صنعت يومئذ إلا واجباً ولاقضيت إلا ديناً علىّ للصداقة القديمة وللود الصحيح .

الملك : ولكن ما عساى أصنع يابن حيون بهذه الثروة وأنا كما ترانى : صيد فى قيد ، وأسد فى صفد ، وحى فى قبر ، ودنيا فى شبر ؛ إنها لهبة مشكورة وإن كانت هى والحرمان سواء .

ابن حيون : لقد أراح الله بالك من هذه الناحية يا مولاى وأذهب عنك الحزن . . . ألا يسرك يا مولاى أن تنتقل من هذه القلعة المظلمة الرطبة إلى منزل بظاهر المدينة جديد البناء حسن الأثاث تحيط به الأشجار من كل جانب ، فتنزله وقد طرحت هذه القيود فتستقبل الراحة والحرية وتتمتع بالعزلة التى هام بها العقلاء فى كل زمان ؟

الملك : ومن لى بهذا الذى تصف يابن حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمر قد تم يا مولاى ، فقد فرغ من شرائه

وتأثيثه وتهيئته لنزولك به فى أهلك وعيالك ، وأما النقلة فغداً أو بعد غد إن شاء الله .

الملك : وابن تاشفين . . . ؟

ابن حيون : هو الذى أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتكَ المشهورة التى سارت مثلاً فى فم الأندلس ، إذا سئلتُ أى المفزعين أحبُّ إليك : ملك الأسبان أم سلطان المغرب ؟ فأجبتَ : « رعى الجمال ولا رعى الخنازير » ! فأمر أن يحمل إليك فى المنزل بعيران من نجائب إبله لترعاهما له فى خميلة الدار الجديدة .

الملك (فى إطراق) : الآن تذكرت . لقد سئلت مرة فى مجلس الحكم كان لا بد لى أن أخضع لسلطان أو أدينَ لملك بالطاعة فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأسبان ؟ فأجبتُ « أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأسبان » وأظن أن عبارتى هذه نقلت يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبته ووجدها شريفة .

بثينة : ولكن المكافأة كانت غير شريفة يا أبى .

الملك : تريدين يا بثينة أن تقولى إن مروءة السلطان لم تزد على أن جعلنى راعياً لجماله بعد ما سلب نعمتى واغتصب مُلكى ونفانى أنا وأسرتى فى أغمات .

الرميكية : هذا جهد الرجل فى المروءة يا مولاى وهـــذه غاية كرمه ؛ فلا تكلفه فوق قدره باعه ، ولا تسأله ما ليس فى طباعه .

الملك (لابن حيون) : ولكن قل لى يابن حيون من أخذ لنا هذا التافه القليل من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنا وصنع كل هـــذا حتى غير رأىَ السلطان وصرفه العنف إلى اللطف .

بثينة : هو لا شك ابن حيون يا مولاى .

ابن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعت شيئاً ولكن المال صنع .
(ويشير إلى الجواهر) .

الملك : سنذكر لك هذه الهمة الكبرى يابن حيون .

بثينة : وتلك الهمة الصغرى أتذكرها للسلطان يا مولاى ؟

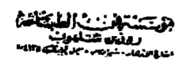
فقـــد تسمح فنقلك من هذه القلعة إلى دار غيرها في أغمات .

الملك (ويبتسم ابتسامة تهكم) أعيشُ فيها حراً طليقاً بين أربعة جدران وأرعى له فيها الجمال .

بثينة : أنت الذى رعيت لله فى أشبيلية قوماً شيدوا حضارة الإسلام ، وشعباً عزيزاً كريماً طالما ناضل دون عرينه وصبر على عداوة الفرنجة وتألبهم عليـــه القرون الطوال .

(ستـــار)





يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

الثمن ١٠